مقدمة
من كلام الإمام الغزالى
رضى الله عنه

(١) الخلق : عبارة عن حالة للنفس راسخة، تصدر عنها الأفعال بسهولة، بدون استعمال فكر وروية، فإن كانت الأفعال الصادرة عنها جميلة، سميت تلك الحالة خلقا حسنا، وإلا سميت خلقا سيئا ومالم تكن راسخة فى النفس لا تسمى خلقا.

(٢) والأخلاق تكتسب بالرياضة والمجاهدة ابتداء، حتى تصير طبعا انتهاء. كمن يريد أن يكون خطه حسنا : فإنه يتكلف أولا تقليد الخطوط الجميلة حتى يصير الخط الحسن طبيعة له، وليس هذا بغريب فى الإنسان الذى وهبه الله العقل والإدراك بل ولا فى الحيوان الوحشى؛ فإنه يمكن تغيير خلقه بالرياضة حتى يستأنس ألا ترى الكلب يعلم للصيد والحراسة.

(٣) ولكن تهذيب الأخلاق يثقل على المريد فى البداية،

ثُمَّ يَتَنَعَّمُ بِهِ فِي النِّهَايَةِ ، كَالصَّبِيِّ يُفْطَمُ عَنِ الثَّدْيِ ، فَيَشْتَدُّ بُكَاؤُهُ، وَيَهْزُلُ جَسَدُهُ ، وَيَصْفَرُّ لَوْنُهُ ؛ وَيَشْتَدُّ نُفُورُهُ عَنِ الطَّعَامِ الَّذِي يُقَدَّمُ إِلَيْهِ بَدَلاً عَنِ اللَّبَنِ. وَلَكِنَّهُ إِذَا مُنِعَ اللَّبَنُ رَأْسًا، يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَعَظُمَ تَعَبُهُ فِي الصَّبْرِ، وَغَلَبَهُ الْجُوعُ تَنَاوَلَ الطَّعَامَ تَكَلُّفًا ، ثُمَّ يَصِيرُ طَبْعًا. فَلَوْ رُدَّ إِلَى الثَّدْيِ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ، فَيَهْجُرُ الثَّدْيَ. وَيَعَافُ اللَّبَنَ ، وَيَأْلَفُ الطَّعَامَ.

وَكَذَلِكَ الدَّابَّةُ فِي الِابْتِدَاءِ تَنْفُرُ عَنِ السَّرْجِ وَاللِّجَامِ وَالرُّكُوبِ، فَتُحْمَلُ عَلَى ذَلِكَ قَهْرًا بِالسَّلَاسِلِ وَالْقُيُودِ، ثُمَّ تَأْنَسُ بِهِ بِحَيْثُ تُتْرَكُ فِي مَوْضِعِهَا فَتَقِفُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ قَيْدٍ وَلَا سِلْسِلَةٍ. وَلِلْإِشَارَةِ إِلَى قَبُولِ الْأَخْلَاقِ لِلتَّغْيِيرِ وَرَدَ الْحَدِيثُ: إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَّقِ الشَّرَّ يُوقَهُ.

قَالَ الْبُوصِيرِي رَحِمَهُ اللهُ:

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى
حُبِّ الرَّضَاعِ وَإِنْ تَفْطِمْهُ يَنْفَطِمِ
مَنْ لِي بِرَدِّ جِمَاحٍ مِنْ غَوَايَتِهَا
كَمَا يُرَدُّ جِمَاحُ الْخَيْلِ بِاللُّجُمِ

(٤) وَأُمَّهَاتُ مَحَاسِنِ الأَخْلَاقِ . هِيَ الْفَضَائِلُ الأَرْبَعَةُ :
الْحِكْمَةُ وَالْعَدْلُ وَالشَّجَاعَةُ وَالْعِفَّةُ .

فَالْحِكْمَةُ : هِيَ إِصَابَةُ الْحَقِّ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ . وَهِيَ رَأْسُ الأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ . قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا) وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ : (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ) قَالَ : هِيَ الْعَقْلُ وَالْفَهْمُ وَالْفَطَانَةُ مِنْ غَيْرِ نُبُوَّةٍ .

وَالْعَدْلُ : حَالَةٌ لِلنَّفْسِ وَقُوَّةٌ بِهَا تَسُوسُ الْغَضَبَ وَالشَّهْوَةَ وَتَحْمِلُهَا عَلَىٰ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ .

وَالشَّجَاعَةُ : كَوْنُ قُوَّةِ الْغَضَبِ مُنْقَادَةً لِلْعَقْلِ فِي إِقْدَامِهَا وَإِحْجَامِهَا .

وَالْعِفَّةُ : تَأَدُّبُ قُوَّةِ الشَّهْوَةِ بِتَأْدِيبِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ .

(٥) وَالْمَحْمُودُ مِنَ الأَخْلَاقِ : الْوَسَطُ وَالِاعْتِدَالُ بَيْنَ الإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ فِي مَدْحِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) . وَقَالَ تَعَالَىٰ فِي

مَدحَ عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ : (وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا) وَفِي الْحَدِيثِ : خَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَطُهَا . وَقَالَ الشَّاعِرُ :

حُبُّ التَّنَاهِي غَلَطْ خَيْرُ الأُمُورِ الوَسَطْ

فَالشَّجَاعَةُ : مَحْمُودَةٌ ، وَهِيَ بَيْنَ التَّهَوُّرِ وَالْجُبْنِ . وَالسَّخَاءُ : بَيْنَ التَّبْذِيرِ وَالتَّقْتِيرِ . وَالتَّوَاضُعُ : بَيْنَ الْمَهَانَةِ وَالْكِبْرِ . وَالْحَيَاءُ : بَيْنَ الضَّعْفِ وَالْخُشُونَةِ . وَالْبَشَاشَةُ : بَيْنَ الْخَلاعَةِ وَالْجَفَاءِ . وَالْعِفَّةُ : بَيْنَ الشَّرَهِ وَالْجُمُودِ إِلَى غَيْرِ ذَٰلِكَ مِنَ الأَخْلَاقِ .

(٦) وَالأَخْلَاقُ الْحَمِيدَةُ : هِيَ سَبَبُ السَّعَادَةِ فِي الدَّارَيْنِ ، وَهِيَ تَرْفَعُ صَاحِبَهَا إِلَى أُفُقِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ ، وَالأَخْلَاقُ السَّيِّئَةُ : هِيَ السُّمُومُ الْقَاتِلَةُ ، وَالْخَبَائِثُ الْمُبْعِدَةُ عَنْ رَحْمَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَهِيَ الَّتِي تَهْوِي بِصَاحِبِهَا إِلَى حَضِيضِ الشَّيَاطِينِ الْمَطْرُودِينَ ، وَهِيَ أَمْرَاضُ الْقُلُوبِ ، وَأَسْقَامُ النُّفُوسِ ، إِلَّا أَنَّهُ مَرَضٌ يُفَوِّتُ حَيَاةَ الأَبَدِ ، وَأَيْنَ مِنْهُ الْمَرَضُ الَّذِي لَا يُفَوِّتُ إِلَّا حَيَاةَ الْجَسَدِ ، وَإِذَا اشْتَدَّتْ عِنَايَةُ الأَطِبَّاءِ بِعِلَاجِ الأَبْدَانِ ، مُحَافَظَةً عَلَى الْحَيَاةِ الْفَانِيَةِ ، فَالْعِنَايَةُ بِعِلَاجِ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ أَوْلَى ، لِأَنَّهَا تَحْفَظُ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ .

وَهٰذَا النَّوْعُ مِنَ الطِّبِّ وَاجِبٌ تَعَلُّمُهُ عَلَى كُلِّ ذِي لُبٍّ، وَهُوَ طِبُّ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَدْ أَرْسَلَهُمُ اللهُ تَعَالَى لِتَعْلِيمِ الأُمَمِ. كَيْفَ يُطَهِّرُونَ قُلُوبَهُمْ مِنَ الأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ وَكَيْفَ يُحَلُّونَ نُفُوسَهُمْ بِالأَخْلَاقِ الكَرِيمَةِ.

(٧) فَدُونَكَ هٰذَا الكِتَابَ: فَاقْرَأْهُ بِإِمْعَانٍ وَتَدَبُّرٍ، وَأَلْزِمْ نَفْسَكَ العَمَلَ بِمَا فِيهِ وَتَرَقَّ بَعْدَهُ إِلَى الكُتُبِ الكَبِيرَةِ، حَتَّى تَفْهَمَ حَقَائِقَ الأَخْلَاقِ. وَتَكُونَ مِنَ المُهَذَّبِينَ، السُّعَدَاءِ فِي الدُّنْيَا وَالدِّينِ، وَاللهُ المُوَفِّقُ.

اَلْقِسْمُ الثَّانِى : فِى الْأَخْلَاقِ (١)

١- اَلْحَيَاءُ وَالْوَقَاحَةُ

(١) اِعْلَمْ أَيُّهَا الْوَلَدُ الْعَزِيزُ : أَنَّ الْحَيَاءَ أَصْلُ الْفَضَائِلِ، وَمَنْبَعُ الْآدَابِ، فَيَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَخَلَّقَ بِهِ مِنْ أَوَّلِ نَشْأَتِهِ، لِيَعْتَادَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنَ الْآدَابِ فِى كِبَرِهِ. وَفِى الْحَدِيثِ : اَلْحَيَاءُ لَا يَأْتِى إِلَّا بِخَيْرٍ. اَلْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ. اَلْحَيَاءُ هُوَ الدِّينُ كُلُّهُ. وَأَمَّا الْبَذَاءَةُ وَالْوَقَاحَةُ : فَإِنَّهَا تَفْتَحُ أَبْوَابَ الرَّذَائِلِ كُلَّهَا. قَالَ النَّبِىُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ. وَقَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِى ... وَلَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ

فَلَا وَاللهِ مَا فِى الْعَيْشِ خَيْرٌ ... وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ

يَعِيشُ الْمَرْءُ مَا اسْتَحْيَا بِخَيْرٍ

وَيَبْقَى الْعُودُ مَا بَقِىَ اللِّحَاءُ (٢)

---

(١) أما القسم الأول ففى الآداب وقد اشتمل عليه الجزء الثالث من الكتاب.

(٢) اللحاء : القشر الذى يحفظه ويقيه.

وَكَانَ سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ يَتَمَثَّلُ بِهٰذَا الْبَيْتِ كَثِيرًا:

إِنِّي كَأَنِّي أَرٰى مَنْ لَا حَيَاءَ لَهُ
وَلَا أَمَانَةَ وَسْطَ الْقَوْمِ عُرْيَانَا

(٢) وَالْحَيَاءُ يَنْقَسِمُ إِلٰى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: حَيَاؤُكَ مِنَ اللّٰهِ تَعَالٰى. وَحَيَاؤُكَ مِنَ النَّاسِ، وَحَيَاؤُكَ مِنْ نَفْسِكَ،

فَأَمَّا حَيَاؤُكَ مِنَ اللّٰهِ تَعَالٰى: فَيَكُونُ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ. قَالَ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاءِ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللّٰهِ: فَكَيْفَ نَسْتَحْيِي مِنَ اللّٰهِ حَقَّ الْحَيَاءِ؟ قَالَ «مَنْ حَفِظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعٰى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوٰى، وَتَرَكَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَذَكَرَ الْمَوْتَ وَالْبِلٰى: فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الْحَيَاءِ».

وَهٰذَا الْحَيَاءُ ثَمَرَةُ قُوَّةِ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ، وَلِذٰلِكَ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: قِلَّةُ الْحَيَاءِ كُفْرٌ، اَلْحَيَاءُ نِظَامُ الْإِيمَانِ، فَإِذَا انْحَلَّ نِظَامُ الشَّيْءِ: تَبَدَّدَ مَا فِيهِ وَتَفَرَّقَ.

وَأَمَّا حَيَاؤُكَ مِنَ النَّاسِ: فَبِأَنْ تَغُضَّ بَصَرَكَ عَمَّا لَا

يَحِلُّ لَكَ مِنهُم. وَفِي الحَدِيثِ (لَعَنَ اللهُ النَّاظِرَ وَالمَنظُورَ لَه) وَسُئِلَ حَكِيمٌ عَنِ الفَاسِقِ؟ فَقَالَ: الَّذِي لَا يَغُضُّ بَصَرَهُ عَنْ أَبْوَابِ النَّاسِ وَعَورَاتِهِم، وَأَنْ تَتَخَلَّقَ مَعَهُم بِالأَخلَاقِ الحَسَنَةِ وَلَا تُؤْذِيهِم بِالأَخلَاقِ السَّيِّئَةِ. وَلَا تَعمَلَ أَمَامَهُم شَيئاً مِنَ المَعَاصِي أَوِ العَادَاتِ القَبِيحَةِ، وَلَا تَتَكَلَّمَ عِندَهُم بِكَلَامٍ غَيرِ لَائِقٍ، فَضلاً عَنِ الكَلَامِ البَذِيءِ. قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: اَلحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ، وَالإِيمَانُ فِي الجَنَّةِ. وَالبَذَاءُ مِنَ الجَفَاءِ، وَالجَفَاءُ فِي النَّارِ، وَأَنْ تَظهَرَ أَمَامَهُم بِمَظهَرٍ جَمِيلٍ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا، وَتُحَافِظَ عَلَى سُمعَتِكَ الحَسَنَةِ، كَيلَا يُنقَلَ عَنكَ أَمرٌ قَبِيحٌ. وَفِي الحَدِيثِ (مِنْ تَقوَى اللهِ اتِّقَاءُ النَّاسِ).

وَهٰذَا الحَيَاءُ يَجعَلُكَ ذَا مُرُوءَةٍ وَصِدقٍ وَشَجَاعَةٍ، وَكَرَمٍ وَحِلمٍ وَأَمَانَةٍ. فَتَكُونُ شَرِيفَ النَّفسِ، حَسَنَ السُّمعَةِ، وَيَمنَعُكَ عَنِ الدَّنَاءَةِ وَالجُبنِ وَالبُخلِ، وَالكَذِبِ، وَالخِيَانَةِ، وَالسَّفَاهَةِ. لِأَنَّكَ تَستَحِي أَنْ يَرَاكَ النَّاسُ مُتَّصِفاً بِهٰذِهِ الصِّفَاتِ الرَّدِيئَةِ. حَتَّى قَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: وَاللهِ لَو عَلِمتُ أَنَّ شُربَ المَاءِ البَارِدِ يَثلِمُ مُرُوءَتِي: مَا شَرِبتُهُ طُولَ حَيَاتِي.

وَمِن حَيَائِكَ مِنَ النَّاسِ: أَنْ تُعطِيَ كُلَّ ذِي فَضلٍ فَضلَهُ،

وَتُقَدِّرُ أَصْحَابَ الْحُقُوقِ حَقَّ قَدْرِهِمْ: مِثْلَ وَالِدَيْكَ وَأَسَاتِذَتِكَ، وَمَنْ هُمْ أَكْبَرُ مِنْكَ سِنًّا أَوْ مَقَامًا، وَتَتَوَاضَعَ لَهُمْ، وَمِنَ الْمَأْثُورِ: تَوَاضَعُوا لِمَنْ تَتَعَلَّمُونَ مِنْهُ، وَمِنْهُ اللَّهُمَّ لَا يُدْرِكُنِي زَمَانٌ لَا يُتَّبَعُ فِيهِ الْعَلِيمُ، وَلَا يُسْتَحْيَا فِيهِ مِنَ الْحَلِيمِ، وَمِنْهُ إِنَّمَا يَعْرِفُ الْفَضْلَ لِأَهْلِ الْفَضْلِ أَهْلُ الْفَضْلِ.

وَأَمَّا حَيَاؤُكَ مِنْ نَفْسِكَ: فَأَنْ لَا تَعْمَلَ عَمَلًا فِي خَلْوَتِكَ، تَسْتَحِي مِنْهُ إِذَا اطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ، قَالَ بَعْضُ الْأُدَبَاءِ: مَنْ عَمِلَ فِي السِّرِّ عَمَلًا يَسْتَحِي مِنْهُ فِي الْعَلَانِيَةِ، فَلَيْسَ لِنَفْسِهِ عِنْدَهُ قَدْرٌ..

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: لِيَكُنِ اسْتِحْيَاؤُكَ مِنْ نَفْسِكَ، أَكْثَرَ مِنِ اسْتِحْيَائِكَ مِنْ غَيْرِكَ.

وَقَالَ الشَّاعِرُ:

فَسِرِّي كَإِعْلَانِي وَهَذِي خَلِيقَتِي

وَظُلْمَةُ لَيْلِي كَابْيِضَاضِ نَهَارِي

وَهَذَا الْحَيَاءُ مِنْ حُسْنِ سَرِيرَتِكَ، وَمَعْرِفَتِكَ قَدْرَ نَفْسِكَ. فَمَتَى اجْتَمَعَتْ فِيكَ أَقْسَامُ الْحَيَاءِ الثَّلَاثَةِ: فَقَدْ تَمَّتْ فِيكَ أَسْبَابُ

الْخَيْرِ، وَزَالَتْ عَنْكَ أَسْبَابُ الشَّرِّ، وَحُزْتَ رِضَا اللهِ، وَصِرْتَ مَحْبُوبًا بَيْنَ النَّاسِ.

(٣) وَإِيَّاكَ وَالْحَيَاءَ الْمَذْمُومَ، وَهُوَ: الَّذِي يَمْنَعُكَ عَنْ فِعْلِ الْخَيْرِ، وَعَنْ نُصْرَةِ الْحَقِّ، وَقَوْلِ الصِّدْقِ، وَعَنْ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ وَيَجْعَلُكَ ذَلِيلًا خَائِفًا، وَجَبَانًا، فَإِنَّ صَاحِبَ هٰذَا الْحَيَاءِ مَحْرُومٌ مِنَ الْخَيْرِ، كَمَا قَالَ سَيِّدُنَا عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قُرِنَتِ الْهَيْبَةُ بِالْخَيْبَةِ، وَالْحَيَاءُ بِالْحِرْمَانِ.

٢ - مَثَلٌ عُلْيَا فِي الْحَيَاءِ

(٢) كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أَشَدَّ النَّاسِ حَيَاءً: لَا يُثْبِتُ بَصَرَهُ فِي وَجْهِ أَحَدٍ، وَلَا يُشَافِهُ أَحَدًا بِمَا يَكْرَهُهُ، دَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ وَعَلَيْهِ صُفْرَةٌ فَكَرِهَهَا، فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا، حَتَّى خَرَجَ. فَقَالَ لِبَعْضِ الْقَوْمِ: لَوْ قُلْتُمْ لِهٰذَا، أَنْ يَدَعَ هٰذِهِ يَعْنِي: الصُّفْرَةَ. وَذٰلِكَ لِأَنَّ فِيهِ نَوْعَ تَشَبُّهٍ بِالنِّسَاءِ، وَهُوَ مِنْ غَيْرِ قَصْدِ التَّشَبُّهِ بِهِنَّ مَكْرُوهٌ، وَبِقَصْدِ ذٰلِكَ حَرَامٌ.

وَمَا رُئِيَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَطُّ مَادًّا رِجْلَيْهِ بَيْنَ أَصْحَابِهِ.

وَكَانَ إِذَا أَرَادَ قَضَاءَ الْحَاجَةِ لَمْ يَرْفَعْ ثَوْبَهُ حَتَّىٰ يَدْنُوَ مِنَ الْأَرْضِ .

وَمَرَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِرَجُلٍ يَغْتَسِلُ، فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ حَلِيمٌ سَتَّارٌ، وَيُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَارَ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ .

(٢) وَكَانَتْ سَيِّدَتُنَا عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : شَدِيدَةَ الْحَيَاءِ وَالْعِفَّةِ ، حَتَّىٰ قَالَتْ : كُنْتُ أَدْخُلُ الْبَيْتَ الَّذِي دُفِنَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَاضِعَةً ثَوْبِي، وَأَقُولُ إِنَّمَا هُوَ زَوْجِي وَأَبِي ، فَلَمَّا دُفِنَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَاللهِ مَا دَخَلْتُهُ إِلَّا مَشْدُودَةً عَلَيَّ ثِيَابِي حَيَاءً مِنْ عُمَرَ. فَانْظُرْ إِلَى حَيَائِهَا مِنَ الْأَجْنَبِيِّ حَتَّىٰ فِي قَبْرِهِ .

(٣) وَرُوِيَ أَنَّ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، أَتَى الْجُمُعَةَ فَوَجَدَ النَّاسَ قَدِ انْصَرَفُوا ، فَتَنَكَّبَ الطَّرِيقَ عَنِ النَّاسِ ، وَقَالَ : لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَسْتَحِي مِنَ النَّاسِ .

(٤) وَدَعَا قَوْمٌ رَفِيقًا لَهُمْ إِلَىٰ بَعْضِ مَجَالِسِ لَهْوِهِمْ، فَلَمْ يُجِبْهُمْ وَكَتَبَ إِلَيْهِمْ : إِنِّي دَخَلْتُ الْبَارِحَةَ فِي الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمْرِي ، وَإِنِّي أَسْتَحِي مِنْ سِنِّي .

(٥) وَدَخَلَ حَكِيمٌ عَلَى رَجُلٍ فَرَأَى دَارًا مُشَيَّدَةً وَفُرُشًا مَبسُوطَةً وَرَأَى صَاحِبَهَا خُلُوًّا مِنَ الْفَضِيلَةِ فَبَصَقَ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ لَهُ مَا هٰذَا السَّفَهُ أَيُّهَا الْحَكِيمُ فَقَالَ بَلْ هٰذِهِ حِكْمَةٌ إِنَّ الْبُصَاقَ لَيُرْمَى إِلَى أَخَسِّ مَكَانٍ فِي الدَّارِ وَلَمْ أَرَ فِي دَارِكَ أَخَسَّ مِنْكَ .

٣ـ اَلْعِفَّةُ وَالْقَنَاعَةُ وَضِدُّهُمَا

(١) اَلْعِفَّةُ وَالْقَنَاعَةُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ، وَالصِّفَاتِ الْجَمِيلَةِ، وَمَعْنَى الْعِفَّةِ : أَنْ يَمْنَعَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَيَجْتَنِبَ مَا لَا يَجْمُلُ مِنَ الْعَادَاتِ، حَتَّى يَكُونَ عَفِيفَ الْيَدِ : لَا يَسْرِقُ ، وَلَا يَأْخُذُ حَقَّ أَحَدٍ بِلَا إِذْنٍ مِنْهُ، وَلَا يُؤْذِى أَيَّ مَخْلُوقٍ بِيَدِهِ، وَلَا يَكْتُبُ شَيْئًا لَا يَلِيقُ بِشَرَفِهِ، وَلَا يَغُشُّ أَحَدًا . وَفِي الْحَدِيثِ : أَنَّ رَسُولَ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ : مَا هٰذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ ؟ قَالَ : أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللّٰهِ . قَالَ : أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ : مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا .

(٢) وَأَنْ يَكُونَ عَفِيفَ الرِّجْلِ لَا يَمْشِي بِهَا إِلَى مَعْصِيَةٍ ، أَوْ إِلَى إِيذَاءِ أَحَدٍ . عَفِيفَ اللِّسَانِ : لَا يَنْطِقُ بِكَلَامٍ لَا يَلِيقُ بِهِ .

عَفِيفَ السَّمْعِ: لَا يُصْغِي إِلَى الْمَسْمُوعَاتِ الْمُحَرَّمَةِ. عَفِيفَ الْبَصَرِ: لَا يَنْظُرُ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ، أَوْ لَا يَجْمُلُ النَّظَرُ إِلَيْهِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً) وَفِي الْحَدِيثِ، أَنَّ رَجُلاً اطَّلَعَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَمَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: مِدْرَى يَحُكُّ بِهِ رَأْسَهُ. فَلَمَّا رَآهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَنْظُرُنِي لَطَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ. إِنَّمَا جُعِلَ الإِذْنُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ. وَفِي الْحَدِيثِ الآخَرِ: مَنِ اطَّلَعَ فِي دَارِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فَفَقَئُوا عَيْنَهُ: فَقَدْ هُدِرَتْ عَيْنُهُ (أَيْ لَا قِصَاصَ فِيهَا وَلَا دِيَةَ).

وَأَنْ يَكُونَ عَفِيفَ النَّفْسِ: لَا يَتَوَسَّعُ فِي الشَّهَوَاتِ، وَلَا يَجْعَلُ هَمَّهُ نَيْلَ الْمَلَذَّاتِ، بَلْ يَقْنَعُ مِنْهَا بِالْمَوْجُودِ، وَلَا يَتَكَلَّفُ الْمَفْقُودَ، وَلَا يَعِيشُ عِيشَةَ الإِسْرَافِ وَالتَّرَفِ، وَلَا يَطْلُبُ مِنْ أَحَدٍ شَيْئاً. قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: لَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئاً. الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ. وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ، مَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، مَنْ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ: لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ. وَمَنْ

أَنْزَلَهَا بِاللهِ: فَيُوشِكُ اللهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ.

(٣) وَمِنَ الْعِفَّةِ أَيْضًا: أَنْ لَا يَمُدَّ عَيْنَيْهِ إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ مِنْ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ لِبَاسٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. فَإِذَا رَأَى أَحَدًا يَأْكُلُ: لَا يَقْرُبُ مِنْهُ لِيُعْطِيَهُ مِنْ طَعَامِهِ، وَإِذَا سَمِعَ بِوَلِيمَةٍ: لَا يَحْضُرُهَا إِذَا لَمْ يُدْعَ إِلَيْهَا، كَيْلَا يَكُونَ طُفَيْلِيًّا، دَنِيءَ النَّفْسِ، مَكْرُوهًا عِنْدَ جَمِيعِ النَّاسِ.

وَأَنْ لَا يَدْخُلَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ: اِتِّبَاعًا لِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ: فَلَا يَسْأَلُ غَيْرَهُ عَنْ أَسْرَارِهِ، وَلَا يُجِيبُ عَنْ سُؤَالٍ لَمْ يُوَجَّهْ إِلَيْهِ، فَإِذَا الْتَقَى جَمَاعَةً يَتَكَلَّمُونَ فِي أُمُورٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ: لَا يُشَارِكُهُمْ فِي الْكَلَامِ. وَلَا يَسْتَمِعُ إِلَى حَدِيثِهِمْ، كَيْلَا يَكُونَ فُضُولِيًّا أَوْ جَاسُوسًا، فَيَكْرَهُهُ جَمِيعُ النَّاسِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَلَا تَجَسَّسُوا) وَفِي الْحَدِيثِ: لَا تَجَسَّسُوا: مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى حَدِيثِ قَوْمٍ وَهُمْ لَهُ كَارِهُونَ: صُبَّ فِي أُذُنَيْهِ الْآنُكُ (أَيِ الرَّصَاصُ الْمُذَابُ) يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

(٤) وَمِنَ الْعِفَّةِ أَيْضًا وَهُوَ أَهَمُّهَا: أَنْ يَكُونَ عَفِيفَ الْفَرْجِ وَالْبَطْنِ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ: كَالزِّنَى وَاللِّوَاطِ، وَأَكْلِ الرِّبَا وَمَالِ الْيَتِيمِ.

قَالَ اللهُ تَعَالىٰ (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) وَفِي الْحَدِيثِ: أَحَبُّ الْعَفَافِ إِلَى اللهِ تَعَالىٰ: عَفَافُ الْفَرْجِ وَالْبَطْنِ.

وَالدَّاعِي إِلَى الْوُقُوعِ فِي مَعْصِيَةِ الْفَرْجِ: هُوَ النَّظَرُ، فَيَلْزَمُكَ أَنْ تَحْفَظَ عَيْنَكَ، وَلَا تَدَعْهَا تَسْتَرْسِلُ فِي النَّظَرِ إِلَى الْمُشْتَهَيَاتِ الْمُحَرَّمَةِ، قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) وَقَالَ تَعَالىٰ: (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: اَلنَّظْرَةُ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ، مَنْ تَرَكَهَا مِنْ مَخَافَتِي: أَبْدَلْتُهُ إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ، وَفِي الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ: اَلنِّسَاءُ حَبَائِلُ الشَّيْطَانِ. مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ. فَانْتَبِهْ لِهٰذِهِ النَّصِيحَةِ، وَاعْمَلْ بِهَا، لِتَسْلَمَ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ. وَلَا سِيَّمَا فِي هٰذَا الزَّمَانِ الَّذِي فَشَتْ فِيهِ الْمَعَاصِي، وَتَهَاوَنَ النَّاسُ بِهَا، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ. وَلَعَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ آكِلَ الرِّبَا وَمُوكِلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدَيْهِ.

وَفِي الحَدِيثِ : مَلعُونٌ مَن عَمِلَ عَمَلَ قَومِ لُوطٍ .

(٥) إِنَّ القَنَاعَةَ عِزٌّ وَكَرَامَةٌ وَرَاحَةٌ ، وَالطَّمَعُ مَذَلَّةٌ وَتَعَبٌ وَفَضِيحَةٌ .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : عِزُّ المُؤمِنِ استِغنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ . وَقَالَ أَيضاً : الطَّمَعُ يُذهِبُ الحِكمَةَ مِن قُلُوبِ العُلَمَاءِ . وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : فَقَالَ : أَوصِنِي ، قَالَ عَلَيكَ بِالإِيَاسِ ، مِمَّا فِي أَيدِي النَّاسِ ، وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعَ فَإِنَّهُ الفَقرُ الحَاضِرُ .

وَقَالَ سَيِّدُنَا عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجهَهُ : اِستَغنِ عَمَّن شِئتَ تَكُن نَظِيرَهُ ، وَاحتَج إِلَى مَن شِئتَ تَكُن أَسِيرَهُ ، وَأَحسِن إِلَى مَن شِئتَ تَكُن أَمِيرَهُ . الحُرُّ عَبدٌ إِذَا طَمِعَ ، وَالعَبدُ حُرٌّ إِذَا قَنِعَ .

وَقَد مَدَحَ اللهُ تَعَالَى أَهلَ العِفَّةِ بِقَولِهِ : (يَحسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ) .

(٦) وَأَصلُ القَنَاعَةِ : الاِقتِصَادُ . وَفِي الحَدِيثِ : مَا عَالَ مَنِ اقتَصَدَ . وَفِيهِ أَيضاً : مَنِ اقتَصَدَ أَغنَاهُ اللهُ ، وَمَن بَذَّرَ أَفقَرَهُ اللهُ . وَكُن وَاثِقاً بِتَدبِيرِ اللهِ ، مُطمَئِنَّ القَلبِ بِمَا فِي خَزَائِنِهِ الَّتِي

لاتنفد. قال الله تعالىٰ: (وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجعَل لَهُ مَخرَجاً وَيَرزُقهُ مِن حَيثُ لَا يَحتَسِبُ).

وَإِن ضَاقَ عَلَيكَ حَالُكَ: فَانتَظِرِ الفَرَجَ مِنَ اللهِ تَعَالىٰ.

قَالَ سَيِّدُنَا عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ:

وَلَا تُرِيَنَّ النَّاسَ إِلَّا تَجَمُّلاً

نَبَا بِكَ دَهرٌ أَو جَفَاكَ خَلِيلُ

وَإِن ضَاقَ رِزقُ اليَومِ فَاصبِر إِلىٰ غَدٍ

عَسىٰ نَكَبَاتُ الدَّهرِ عَنكَ تَزُولُ

وَقَالَ الطُّغرَائِي:

أُعَلِّلُ النَّفسَ بِالآمَالِ أَرقُبُهَا

مَا أَضيَقَ العَيشَ لَولَا فُسحَةُ الأَمَلِ

وَقَالَ أَبُو فِرَاسٍ الحَمدَانِيُّ فِي فَضلِ القَنَاعَةِ:

إِنَّ الغَنِيَّ هُوَ الغَنِيُّ بِنَفسِهِ

فَإِذَا قَنِعتَ فَكُلُّ شَيءٍ كَافِ

وَقَالَ آخَرُ:

أَفَادَتنِي القَنَاعَةُ كُلَّ عِزٍّ

وَأَيُّ غِنىً أَعَزُّ مِنَ القَنَاعَةِ

فَصَيِّرْهَا لِنَفْسِكَ رَأْسَ مَالٍ

وَصَيِّرْ بَعْدَهَا التَّقْوَى بِضَاعَةْ

(٧) وَمِمَّا يُعِينُ عَلَى التَّعَفُّفِ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ: كَسْبُ الْمَالِ مِنْ طُرُقِهِ الْمَشْرُوعَةِ، كَالتِّجَارَةِ أَوِ الزِّرَاعَةِ أَوِ الصِّنَاعَةِ. وَفِي الْحَدِيثِ: (لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أَحْبُلَهُ، ثُمَّ يَأْتِي الْجَبَلَ، فَيَأْتِي بِحُزْمَةٍ مِنْ حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللهُ بِهَا وَجْهَهُ: خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ).

وَفِي ذَلِكَ حِفْظٌ لِلْكَرَامَةِ وَالْعِزَّةِ، وَجَلْبٌ لِلْمَالِ الْمُعِينِ عَلَى أُمُورِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ، وَبُعْدٌ عَنْ أَضْرَارِ الْبَطَالَةِ وَالْفَرَاغِ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَهْ

مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدَهْ

---

٤ ـ شَوَاهِدُ وَاعِظَةٌ

(١) أَضَافَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا كَافِرًا فَأَمَرَ لَهُ بِشَاةٍ فَحُلِبَتْ، فَشَرِبَ حِلَابَهَا، ثُمَّ أُخْرَى فَشَرِبَهُ،

ثُمَّ أُخْرٰى فَشَرِبَهُ، حَتّٰى شَرِبَ حِلَابَ سَبْعِ شِيَاهٍ، ثُمَّ إِنَّهُ أَصْبَحَ فَأَسْلَمَ، فَأَمَرَلَهُ رَسُوْلُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهٖ وَسَلَّمَ بِشَاةٍ، فَشَرِبَ حِلَابَهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِأُخْرٰى، فَلَمْ يَسْتَتِمَّهَا، فَقَالَ رَسُوْلُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهٖ وَسَلَّمَ: اَلْمُؤْمِنُ يَشْرَبُ فِيْ مِعًى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَشْرَبُ فِيْ سَبْعَةِ أَمْعَاءَ (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

حُكِيَ أَنَّ سَيِّدَنَا عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيْزِ رَأٰى وَلَدًا لَهُ يَوْمَ عِيْدٍ وَعَلَيْهِ قَمِيْصٌ خَلِقٌ فَبَكٰى فَقَالَ مَا يُبْكِيْكَ فَقَالَ لَهُ يَا بُنَيَّ أَخْشٰى أَنْ يَنْكَسِرَ قَلْبُكَ فِيْ يَوْمِ الْعِيْدِ إِذَا رَآكَ الصِّبْيَانُ بِهٰذَا الْقَمِيْصِ الْخَلِقِ فَقَالَ إِنَّمَا يَنْكَسِرُ قَلْبُ مَنْ أَعْدَمَهُ اللّٰهُ رِضَاهُ أَوْعَقَّ أُمَّهُ وَأَبَاهُ وَإِنِّيْ لَأَرْجُوْ أَنْ يَكُوْنَ اللّٰهُ رَاضِيًا عَنِّيْ بِرِضَاكَ فَبَكٰى سَيِّدُنَا عُمَرُ وَضَمَّهُ إِلَيْهِ وَدَعَا لَهُ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمَا.

(٣) قَالَ عَبْدُ اللّٰهِ بْنِ دِيْنَارٍ: خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ إِلٰى مَكَّةَ، فَعَرَّسْنَا فِيْ بَعْضِ الطَّرِيْقِ، فَانْحَدَرَ عَلَيْهِ رَاعٍ مِنَ الْجَبَلِ، فَقَالَ لَهُ يَا رَاعِيْ: بِعْنِيْ شَاةً مِنْ هٰذِهِ الْغَنَمِ، فَقَالَ: إِنِّيْ مَمْلُوْكٌ، فَقَالَ: قُلْ لِسَيِّدِكَ أَكَلَهَا الذِّئْبُ، قَالَ: فَأَيْنَ اللّٰهُ؟ قَالَ فَبَكٰى عُمَرُ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ، ثُمَّ غَدَا إِلَى الْمَمْلُوْكِ، فَاشْتَرَاهُ مِنْ مَوْلَاهُ وَأَعْتَقَهُ، وَقَالَ: أَعْتَقْتُكَ فِي الدُّنْيَا

هٰذِهِ الْكَلِمَةَ، وَأَرْجُو أَنْ نُعْتِقَكَ فِي الْآخِرَةِ.

(٤) وَفِي الْحَدِيثِ: اِشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا لَهُ. فَوَجَدَ الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ فِي عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ. فَقَالَ الَّذِي اشْتَرَى الْعَقَارَ: خُذْ ذَهَبَكَ مِنِّي، إِنَّمَا اشْتَرَيْتُ مِنْكَ الْأَرْضَ، وَلَمْ أَبْتَعْ مِنْكَ الذَّهَبَ. وَقَالَ الَّذِي لَهُ الْأَرْضُ: إِنَّمَا بِعْتُكَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا. فَتَحَاكَمَا إِلَى رَجُلٍ. فَقَالَ الَّذِي تَحَاكَمَا إِلَيْهِ: أَلَكُمَا وَلَدٌ؟ قَالَ: أَحَدُهُمَا: لِي غُلَامٌ. وَقَالَ الْآخَرُ: لِي جَارِيَةٌ. قَالَ: أَنْكِحُوا الْغُلَامَ الْجَارِيَةَ. وَأَنْفِقُوا عَلَى أَنْفُسِهِمَا مِنْهُ وَتَصَدَّقَا.
(رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ)

(٥) حُكِيَ أَنَّ رَجُلًا صَادَ قُنْبُرَةً، فَقَالَتْ: مَا تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ بِي؟ قَالَ: أَذْبَحُكِ وَآكُلُكِ. قَالَتْ: وَاللّٰهِ مَا أَشْفِي مِنْ قَرَمٍ، وَلَا أُشْبِعُ مِنْ جُوعٍ، وَلٰكِنْ أُعَلِّمُكَ ثَلَاثَ خِصَالٍ هِيَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَكْلِي. أَمَّا وَاحِدَةٌ فَأُعَلِّمُكَ وَأَنَا فِي يَدِكَ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَإِذَا صِرْتُ عَلَى الشَّجَرَةِ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَإِذَا صِرْتُ عَلَى الْجَبَلِ. قَالَ: هَاتِ الْأُولَى. قَالَتْ: لَا تَتَلَهَّفَنَّ عَلَى مَا فَاتَكَ. فَخَلَّاهَا، فَلَمَّا صَارَتْ عَلَى الشَّجَرَةِ قَالَ: هَاتِ الثَّانِيَةَ، قَالَتْ: لَا تُصَدِّقَنَّ بِمَا لَا يَكُونُ. ثُمَّ طَارَتْ فَصَارَتْ عَلَى الْجَبَلِ، فَقَالَتْ: يَا شَقِيُّ

لَوْ ذَبَحْتَنِي : لَأَخْرَجْتَ مِنْ حَوْصَلَتِي دُرَّتَيْنِ ، زِنَةِ كُلِّ دُرَّةٍ عِشْرُونَ مِثْقَالاً ، قَالَ : فَعَضَّ عَلَى شَفَتَيْهِ وَتَلَهَّفَ ، وَقَالَ : هَاتِ الثَّالِثَةَ ، قَالَتْ : أَنْتَ قَدْ نَسِيتَ اثْنَتَيْنِ ، فَكَيْفَ أُخْبِرُكَ بِالثَّالِثَةِ ، أَلَمْ أَقُلْ لَكَ : لَا تَلَهَّفَنَّ عَلَى مَا فَاتَكَ ، وَلَا تُصَدِّقَنَّ بِمَا لَا يَكُونُ ، أَنَا لَحْمِي وَدَمِي وَرِيشِي لَا يَكُونُ عِشْرِينَ مِثْقَالاً ، فَكَيْفَ يَكُونُ فِي حَوْصَلَتِي دُرَّتَانِ ، فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ عِشْرُونَ مِثْقَالاً ؛ ثُمَّ طَارَتْ فَذَهَبَتْ .

وَمَغْزَى الْقِصَّةِ ، النَّهْيُ عَنِ الْحِرْصِ وَالطَّمَعِ .

---

٥ ـ الْأَمَانَةُ وَالْخِيَانَةُ

(١) الْأَمَانَةُ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي أَمَرَنَا اللهُ بِهَا . قَالَ تَعَالَى : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا) وَجَعَلَ مَسْؤُولِيَّةَ الْأَمَانَةِ ثَقِيلَةً جِدًّا . فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً) .

(٢) وَمَعْنَى الْأَمَانَةِ : أَنْ يُحَافِظَ الْإِنْسَانُ عَلَى أَوَامِرِ رَبِّهِ :

فَيَقُومَ بِالْفَرَائِضِ وَالْوَاجِبَاتِ: كَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ وَالْحَجِّ، كَمَا أَمَرَهُ اللهُ بِهَا. وَيَجْتَنِبَ الْمَعَاصِيَ وَالْمُنْكَرَاتِ: فَلَا يَعْصِي بِشَيْءٍ مِنْ أَعْضَائِهِ، لِأَنَّهَا أَمَانَةٌ عِنْدَهُ، وَقَدْ نَهَاهُ اللهُ عَنِ الْعِصْيَانِ. وَيُؤَدِّيَ حُقُوقَ الْعِبَادِ: فَلَا يَسْرِقُ، وَلَا يَغُشُّ، وَلَا يَخُونُ الْوَدِيعَةَ، وَلَا يَجْحَدُ الدَّيْنَ، وَلَا يُقَصِّرُ فِي أَدَاءِ وَاجِبِهِ نَحْوَ الْعَمَلِ الَّذِي كُلِّفَ بِهِ، إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الْمَنْهِيَّاتِ. وَفِي الْحَدِيثِ «اَلصَّلَاةُ أَمَانَةٌ، وَالْوُضُوءُ أَمَانَةٌ، وَالْوَزْنُ أَمَانَةٌ، وَالْكَيْلُ أَمَانَةٌ» وَأَشْيَاءُ عَدَّدَهَا وَأَشَدُّ ذٰلِكَ الْوَدَائِعُ.

وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْإِمَامُ رَاعٍ، وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ، وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ.

(٣) وَمِنَ الْأَمَانَةِ: أَنْ تُحَافِظَ عَلَى حُقُوقِ الْمَجَالِسِ، فَلَا تُفْشِي أَسْرَارَهَا، فَكَمْ مِنْ خُصُومَاتٍ وَمُقَاطَعَاتٍ حَصَلَتْ بِسَبَبِ إِفْشَاءِ الْأَسْرَارِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: إِذَا حَدَّثَ رَجُلٌ رَجُلًا بِحَدِيثٍ ثُمَّ الْتَفَتَ

فَهُوَ أَمَانَةٌ. إِلَّا مَجَالِسَ الْمَعَاصِي فَلَا حُرْمَةَ لَهَا. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: اَلْمَجَالِسُ بِالْأَمَانَةِ، إِلَّا ثَلَاثَةَ مَجَالِسَ: سَفْكَ دَمٍ حَرَامٍ، أَوْ فَرْجٍ حَرَامٍ، أَوِ اقْتِطَاعِ مَالٍ بِغَيْرِ حَقٍّ.

(٤) وَالْأَمَانَةُ دَلِيلٌ عَلَى الْإِيمَانِ، وَعَلَى مَحَبَّةِ اللهِ، وَعَكْسُهَا الْخِيَانَةُ، قَالَ تَعَالَى (إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ): (إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا): (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: مَا خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَّا قَالَ: لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ. وَوَرَدَ أَيْضًا (آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ) وَقَدِ اسْتَعَاذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْخِيَانَةِ فَقَالَ: اَللّٰهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ، فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ، فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: إِذَا جَمَعَ اللهُ بَيْنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ، فَيُقَالُ: هٰذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ.

٦ - قِصَّةُ رَجُلٍ أَمِينٍ

ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رَجُلاً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ ائْتِنِي: بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ، فَقَالَ: كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا، قَالَ: فَأْتِنِي بِالْكَفِيلِ، قَالَ: كَفَى بِاللهِ كَفِيلاً، قَالَ: صَدَقْتَ. فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ، فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدُمُ عَلَيْهِ لِلأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا، فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلاَنًا أَلْفَ دِينَارٍ فَسَأَلَنِي كَفِيلاً، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللهِ كَفِيلاً، فَرَضِيَ بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا فَرَضِيَ بِكَ، وَإِنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ، فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا، فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ، حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا. فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي

كَانَ أَسْلَفَهُ. فَأَتَى بِالْأَلْفِ دِينَارٍ. فَقَالَ: وَاللهِ مَازِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِآتِيكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ، قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ، فَانْصَرِفْ بِالْأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

٧- الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ

(١) الصِّدْقُ أَسَاسُ الْأَخْلَاقِ، وَدِعَامَةُ الْآدَابِ، وَمَصْدَرُ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَأَنْوَاعُ الصِّدْقِ كَثِيرَةٌ أَشْهَرُهَا وَأَظْهَرُهَا: الْإِخْبَارُ عَنِ الْأَشْيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، سَوَاءٌ كَانَ بِاللِّسَانِ، أَوْ بِالْكِتَابَةِ، أَوْ بِالْإِشَارَةِ: كَتَحْرِيكِ الرَّأْسِ، وَالْإِشَارَةِ بِالْيَدِ، وَيَكُونُ بِالسُّكُوتِ أَيْضًا؛ فَإِذَا رَأَيْتَ تِلْمِيذًا عَمِلَ عَمَلًا يَسْتَحِقُّ بِهِ الْعِقَابَ فَعَاقَبَ الْأُسْتَاذُ غَيْرَهُ خَطَأً وَأَنْتَ سَاكِتٌ؛ فَهٰذَا يُعَدُّ مِنَ الْكَذِبِ وَالصِّدْقُ: أَنْ تُصَارِحَ الْأُسْتَاذَ بِالَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ.

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ: الصِّدْقُ فِي النِّيَّةِ وَالْإِرَادَةِ، وَالصِّدْقُ فِي

الْعَزْمِ، وَالصِّدْقُ فِي الْوَفَاءِ بِالْعَزْمِ، وَالصِّدْقُ فِي الْعَمَلِ، وَالصِّدْقُ فِي مَقَامَاتِ الدِّينِ.

وَالصِّدْقُ فِي النِّيَّةِ: أَنْ لَا يَكُونَ لَكَ بَاعِثٌ فِي الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَنَاتِ إِلَّا اللهُ، وَلَيْسَ لِهَوَى النَّفْسِ، وَهٰذَا هُوَ مَعْنَى الْإِخْلَاصِ، وَعَكْسُهُ الرِّيَاءُ.

وَالصِّدْقُ فِي الْعَزْمِ: أَنْ يَكُونَ عِنْدَكَ عَزِيمَةٌ صَادِقَةٌ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرَاتِ، لَيْسَ فِيهَا مَيْلٌ وَلَا تَرَدُّدٌ: كَأَنْ تَعْزِمَ إِذَا رَزَقَكَ اللهُ عِلْمًا أَنْ تَنْفَعَ النَّاسَ بِعِلْمِكَ. قَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا عَزِيمَةٍ
فَإِنَّ فَسَادَ الرَّأْيِ أَنْ تَتَرَدَّدَا

وَالصِّدْقُ فِي الْوَفَاءِ بِالْعَزْمِ: أَنْ تَعْزِمَ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ، ثُمَّ تَفِيَ بِهِ، وَلَا تَتَأَخَّرَ عَنْهُ، كَأَنْ تَقُولَ: إِذَا رَزَقَنِي اللهُ مَالًا تَصَدَّقْتُ بِهِ. فَلَا تَتَأَخَّرْ عَنِ الصَّدَقَةِ إِذَا حَصَلَ عِنْدَكَ الْمَالُ.

وَالصِّدْقُ فِي الْأَعْمَالِ: أَنْ لَا تَظْهَرَ بِأَعْمَالٍ عَلَى عَكْسِ مَا فِي بَاطِنِكَ: كَأَنْ تَظْهَرَ بِهَيْئَةِ الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ وَقَلْبُكَ غَافِلٌ،

وَأَنْ تَمْشِيَ بِهَيْئَةِ السُّكُونِ وَالْوَقَارِ، وَبَاطِنُكَ لَيْسَ مُتَّصِفًا بِذٰلِكَ. فَاجْتَهِدْ أَنْ تَجْعَلَ بَاطِنَكَ مِثْلَ ظَاهِرِكَ، أَوْ خَيْرًا مِنْ ظَاهِرِكَ. وَفِي الْحَدِيثِ: اَللّٰهُمَّ اجْعَلْ سَرِيرَتِي خَيْرًا مِنْ عَلَانِيَتِي، وَاجْعَلْ عَلَانِيَتِي صَالِحَةً.

وَالصِّدْقُ فِي مَقَامَاتِ الدِّينِ: أَنْ تَصْدُقَ فِي تَوْحِيدِكَ لِلّٰهِ، وَتَحْتَرِزَ غَايَةَ الْإِحْتِرَازِ عَنْ أَدْنَى الشِّرْكِ. وَتَصْدُقَ فِي خَوْفِكَ مِنْ عِقَابِ اللّٰهِ، وَرَجَائِكَ فِي ثَوَابِهِ، وَتَصْدُقَ فِي مَحَبَّتِكَ لَهُ وَرِضَاكَ عَنْهُ، وَتَوَكُّلِكَ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ.

(٢) وَقَدْ أَمَرَنَا الدِّينُ بِالصِّدْقِ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِنَا وَأَحْوَالِنَا، وَإِنْ كَانَ فِيهِ ضَرَرُنَا مَثَلًا. قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) وَفِي الْحَدِيثِ: تَحَرَّوْا الصِّدْقَ وَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنَّ فِيهِ الْهَلَكَةَ، فَإِنَّ فِيهِ النَّجَاةَ. وَتَجَنَّبُوا الْكَذِبَ، وَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنَّ فِيهِ النَّجَاةَ، فَإِنَّ فِيهِ الْهَلَكَةَ. وَنَهَانَا نَهْيًا شَدِيدًا عَنِ الْكَذِبِ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّٰهِ) وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: (لَعْنَةَ اللّٰهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) وَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ: أَنَّهُ مِنْ آيَةِ الْمُنَافِقِ: وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ

يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَالْبِرُّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا. وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا.

(٣) مَا أَجْمَلَ الصِّدْقَ! وَمَا أَسْعَدَ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَصْدُقُ فِي كَلَامِهِ! إِنَّهُ يَعِيشُ سَعِيدًا مُحْتَرَمًا، مَوْثُوقًا بِهِ بَيْنَ النَّاسِ، فَإِذَا تَكَلَّمَ فَالنَّاسُ يُصَدِّقُونَ كَلَامَهُ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَّهِمُوهُ بِالْكَذِبِ، وَمَا أَقْبَحَ الْكَذِبَ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَأَصْلُ كُلِّ شَرٍّ، وَمَنْبَعُ كُلِّ شَقَاءٍ وَهَوَانٍ، وَالْكَذَّابُ أَشْنَعُ مِنَ اللِّصِّ لِأَنَّ اللِّصَّ يَسْرِقُ مَالَكَ وَالْكَذَّابُ يَسْرِقُ عَقْلَكَ. قَالَ الشَّاعِرُ:

لِي حِيلَةٌ فِيمَنْ يَنِـ ـمُّ وَلَيْسَ فِي الْكَذَّابِ حِيلَهْ
مَنْ كَانَ يَخْلُقُ مَا يَقُـ ـولُ فَحِيلَتِي فِيهِ قَلِيلَهْ

وَمَا أَشْقَى الْإِنْسَانَ الَّذِي يَكْذِبُ فِي قَوْلِهِ: وَقَدْ فَقَدَ ثِقَةَ النَّاسِ بِهِ، وَلَيْسَ لَهُ عِنْدَهُمْ أَدْنَى قِيمَةٍ، وَيَتَبَاعَدُونَ عَنْ صُحْبَتِهِ وَلَا يُصَدِّقُونَهُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَلَوْ كَانَ صَادِقًا. كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

كَذَبْتَ وَمَنْ يَكْذِبْ فَإِنَّ جَزَاءَهُ
إِذَا مَا أَتَىٰ بِالصِّدْقِ أَنْ لَا يُصَدَّقَا

وَقَالَ آخَرُ :

إِذَا عُرِفَ الْإِنْسَانُ بِالْكِذْبِ لَمْ يَزَلْ
لَدَى النَّاسِ كَذَّابًا وَلَوْ كَانَ صَادِقًا
فَإِنْ قَالَ لَا تُصْغِي لَهُ جُلَسَاؤُهُ
وَلَمْ يَسْمَعُوا مِنْهُ وَلَوْ كَانَ نَاطِقًا

فَإِذَا صَدَرَ مِنْكَ خَطأٌ فَاعْتَرِفْ بِهِ، وَإِنْ غَضِبَ عَلَيْكَ أَبُوكَ أَوْ أُسْتَاذُكَ وَإِيَّاكَ أَنْ تَعْتَذِرَ عَنْهُ بِالْكَذِبِ. وَلِلَّهِ دَرُّ الشَّاعِرِ حَيْثُ قَالَ :

عَلَيْكَ بِالصِّدْقِ وَلَوْ أَنَّهُ أَحْرَقَكَ الصِّدْقُ بِنَارِ الْوَعِيدْ
وَابْغِ رِضَا الْمَوْلَىٰ فَأَغْبَى الْوَرَىٰ
مَنْ أَسْخَطَ الْمَوْلَىٰ وَأَرْضَى الْعَبِيدْ

(٤) اَلْكَذِبُ مَرَضٌ خَبِيثٌ، إِذَا تَعَوَّدَهُ الْإِنْسَانُ؛ صَعُبَ عَلَيْهِ الْإِقْلَاعُ عَنْهُ كَمَا قَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ: رَأَيْنَا شَارِبَ خَمْرٍ نَزَعَ، وَلِصًّا أَقْلَعَ، وَصَاحِبَ فَوَاحِشَ رَجَعَ، وَلَمْ نَرَ كَذَّابًا صَارَ صَادِقًا.

وَقَالَ الشَّاعِرُ:

عَوِّدْ لِسَانَكَ قَوْلَ الصِّدْقِ تَحْظَ بِهِ

إِنَّ اللِّسَانَ لِمَا عَوَّدْتَ مُعْتَادُ

مُوَكَّلٌ بِتَقَاضِي مَا سَنَنْتَ لَهُ

فِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ فَانْظُرْ كَيْفَ تَرْتَادُ

وَلِذَلِكَ فَاحْذَرْ أَنْ تَتَسَاهَلَ بِالْكَذِبِ فِي كَلَامِكَ، أَوْ مِزَاحِكَ. قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ، وَإِنْ كَانَ مَازِحًا». وَإِيَّاكَ أَنْ تَكْذِبَ وَلَوْ عَلَى الْوَلَدِ الصَّغِيرِ. وَفِي الحَدِيثِ: «مَنْ قَالَ لِصَبِيٍّ: تَعَالَ، هَاكَ، ثُمَّ لَمْ يُعْطِهِ فَهِيَ كَذْبَةٌ». وَهَذَا تَعْلِيمٌ مِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِكُلِّ مَنْ يَتَوَلَّى تَرْبِيَةَ الأَوْلَادِ حَتَّى يَنْشَؤُوا عَلَى الصِّدْقِ مِنْ صِغَرِهِمْ، وَلَا يَعْتَبِرُوا الكَذِبَ ذَنْبًا صَغِيرًا (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ).

(٥) وَمِنَ الْكَذِبِ أَيْضًا: الْغِشُّ وَإِخْلَافُ الْوَعْدِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، وَالْكَذِبُ فِي النَّسَبِ، وَالْكَذِبُ فِي الرُّؤْيَا، وَالْكَذِبُ فِي الحَلِفِ، وَسُوءُ الظَّنِّ. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ (ثَلَاثًا) قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ. وَكَانَ

مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، وَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَشَهَادَةُ الزُّورِ. فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ. وَقَالَ أَيْضًا: إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْفِرْيَةِ: أَنْ يَدَّعِيَ الرَّجُلُ إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ، أَوْ يُرِيَ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ يَرَ، أَوْ يَقُولَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ. وَالْكَذِبُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَشَدُّ أَنْوَاعِ الْكَذِبِ. كَمَا فِي الْحَدِيثِ: إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا: فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ.

وَوَرَدَ فِي النَّهْيِ عَنْ سُوءِ الظَّنِّ، وَالْيَمِينِ الْكَاذِبَةِ: إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ. مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ: فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: وَإِنْ كَانَ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ.

(٦) اَلصِّدْقُ سَبَبٌ لِلسَّعَادَةِ وَالْفَوْزِ فِي الدُّنْيَا: فَانْظُرْ إِلَى الطَّبِيبِ، وَالتَّاجِرِ، وَالصَّانِعِ، إِذَا صَدَقُوا فِي مُعَامَلَتِهِمْ، كَيْفَ يُحِبُّهُمُ النَّاسُ وَيَثِقُونَ بِهِمْ! فَيَرْبَحُونَ رِبْحًا عَظِيمًا. وَعَكْسُ ذٰلِكَ الْكَذِبُ: كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: اَلْكَذِبُ يَنْقُصُ الرِّزْقَ.

وَالصِّدْقُ أَيْضًا: سَبَبٌ لِلْأَجْرِ الْجَزِيلِ، وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ فِي الْآخِرَةِ. كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ: (قَالَ اللهُ هٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

---

٨ - قِصَصٌ لِلصَّادِقِينَ وَالْكَاذِبِينَ

(١) تَخَلَّفَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَكَانَ قَدْ عَزَمَ عَلَى الْمَسِيرِ، وَلٰكِنَّهُ سَوَّفَ وَأَخَّرَ الْعَزْمَ، إِلَى أَنْ فَاتَتْهُ الْفُرْصَةُ، وَبَلَغَهُ الْخَبَرُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ تَوَجَّهَ رَاجِعًا مِنْ تَبُوكَ، فَحَزِنَ حُزْنًا شَدِيدًا، وَتَذَكَّرَ أَنْ يَعْتَذِرَ عَنْ تَخَلُّفِهِ بِالْكَذِبِ، وَلٰكِنَّهُ جَاهَدَ نَفْسَهُ، فَأَجْمَعَ صِدْقَهُ، وَأَخْبَرَ بِكُلِّ صَرَاحَةٍ: بِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ أَدْنَى عُذْرٍ فِي تَخَلُّفِهِ عَنِ الْغَزْوَةِ، فَعَفَا عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَنَزَلَتْ تَوْبَتُهُ فِي الْقُرْآنِ. وَذٰلِكَ بِبَرَكَةِ صِدْقِهِ، وَقَدِ اسْتَمَرَّ عَلَى حَالَتِهِ فِي الصِّدْقِ، وَمَا تَعَمَّدَ كِذْبَةً قَطُّ.

وَقِصَّتُهُ طَوِيلَةٌ، وَهِيَ مَذْكُورَةٌ فِي كُتُبِ السِّيَرِ.

(٢) وجاء في الحديث: أنّ ثعلبة بن حاطب قال يارسول الله: ادعُ الله أن يرزقني مالاً، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: يا ثعلبة، قليلٌ تؤدّي شكره: خيرٌ من كثيرٍ لا تطيقه، فراجعه وقال: والذي بعثك بالحق، لئن رزقني الله مالاً؛ لأعطينّ كلّ ذي حقٍّ حقّه، فدعا له، فاتّخذ غنماً، فنمت كما ينمو الدود، حتّى ضاقت بها المدينة، فنزل وادياً، وانقطع عن الجماعة والجمعة، فسأل عنه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، فقيل: كثر ماله حتّى لا يسعه وادٍ. قال: ياويح ثعلبة، فبعث رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مصدّقين لأخذ الصدقات، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم، ومرّا بثعلبة، فسألاه الصدقة، وأقرآه كتاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الذي فيه الفرائض، فقال: ماهذه إلاّ جزية، ماهذه إلاّ أخت الجزية، وقال: ارجعا حتّى أرى رأيي، فلمّا رجعا قال لهما رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قبل أن يكلّماه: ياويح ثعلبة مرّتين، فنزلت: (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصّدّقنّ ولنكوننّ من الصالحين. فلمّا آتاهم من فضله بخلوا به وتولّوا وهم معرضون. فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما

أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) فَجَاءَ ثَعْلَبَةُ بِالصَّدَقَةِ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللهَ مَنَعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ، فَجَعَلَ يَحْثُو التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ، فَقَالَ: هٰذَا عَمَلُكَ، قَدْ أَمَرْتُكَ فَلَمْ تُطِعْنِي فَقَبَضَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَ بِهَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَلَمْ يَقْبَلْهَا، وَجَاءَ بِهَا إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي خِلَافَتِهِ فَلَمْ يَقْبَلْهَا، وَهَلَكَ فِي زَمَانِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ عَمَّهُ أَنَسَ بْنَ النَّضْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لَمْ يَشْهَدْ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَشَقَّ ذٰلِكَ عَلَى قَلْبِهِ وَقَالَ: أَوَّلُ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ غِبْتُ عَنْهُ: أَمَا وَاللهِ لَئِنْ أَرَانِي اللهُ مَشْهَدًا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ، قَالَ: فَشَهِدَ أُحُدًا فِي الْعَامِ الْقَابِلِ، فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَالَ: يَا أَبَا عَمْرٍو إِلَى أَيْنَ؟ فَقَالَ: وَاهًا لِرِيحِ الْجَنَّةِ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا دُونَ أُحُدٍ. فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، فَوُجِدَ فِي جَسَدِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ، مَا بَيْنَ رَمْيَةٍ وَضَرْبَةٍ وَطَعْنَةٍ، فَقَالَتْ أُخْتُهُ بِنْتُ النَّضْرِ: مَا عَرَفْتُ أَخِي إِلَّا بِبَنَانِهِ. فَنَزَلَتْ هٰذِهِ الْآيَةُ:

(رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ).

(٤) وَكَانَ ثَوْبَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: صَادِقَ الْمَحَبَّةِ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَلِيلَ الصَّبْرِ عَنْهُ، فَأَتَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ وَقَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، يُعْرَفُ الْحُزْنُ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: مَا غَيَّرَ لَوْنَكَ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا بِي مَرَضٌ وَلَا وَجَعٌ، غَيْرَ أَنِّي إِذَا لَمْ أَرَكَ: اِسْتَوْحَشْتُ وَحْشَةً شَدِيدَةً حَتَّى أَلْقَاكَ. ثُمَّ ذَكَرْتُ الْآخِرَةَ، فَأَخَافُ أَنْ لَا أَرَاكَ. لِأَنَّكَ تُرْفَعُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَإِنِّي إِنْ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ: فَفِي مَنْزِلَةٍ أَدْنَى مِنْ مَنْزِلَتِكَ، وَإِنْ لَمْ أَدْخُلِ الْجَنَّةَ: لَا أَرَاكَ أَبَدًا. فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا).

(٥) وَوَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا فَقَالَ: مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ. قَالَ أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللهِ (أَيِ الْمَطَرُ) قَالَ أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ: مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

(٦) حُكِيَ أَنَّهُ خَطَبَ الْحَجَّاجُ فَأَطَالَ، فَقَامَ رَجُلٌ وَقَالَ: الصَّلَاةُ فَإِنَّ الْوَقْتَ لَا يَنْتَظِرُكَ، وَالرَّبَّ لَا يَعْذِرُكَ. فَأَمَرَ بِحَبْسِهِ، فَأَتَاهُ قَوْمُهُ، وَزَعَمُوا أَنَّهُ مَجْنُونٌ، وَسَأَلُوهُ أَنْ يُخَلِّيَ سَبِيلَهُ، فَقَالَ الْحَجَّاجُ: إِنْ أَقَرَّ بِالْجُنُونِ خَلَّيْتُهُ، فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: مَعَاذَ اللهِ، لَا أَزْعُمُ أَنَّ اللهَ ابْتَلَانِي، وَقَدْ عَافَانِي، فَبَلَغَ ذَلِكَ الْحَجَّاجَ، فَعَفَا عَنْهُ لِصِدْقِهِ.

(٧) وَحُكِيَ أَنَّ رَجُلًا لَهُ بَقَرَةٌ يَحْلُبُ لَبَنَهَا، ثُمَّ يَخْلِطُهُ بِالْمَاءِ وَيَبِيعُهُ، وَبَيْنَمَا هِيَ وَاقِفَةٌ تَرْعَى جَاءَ السَّيْلُ فَأَغْرَقَهَا، فَحَزِنَ الرَّجُلُ عَلَيْهَا حُزْنًا شَدِيدًا. فَقَالَ لَهُ أَوْلَادُهُ: يَا أَبَانَا لَا تَحْزَنْ، فَإِنَّ الْمِيَاهَ الَّتِي كُنَّا نَخْلِطُهَا بِلَبَنِهَا قَدِ اجْتَمَعَتْ فَأَغْرَقَتْهَا. فَأَدْرَكَ الرَّجُلُ: أَنَّ الْغِشَّ عَاقِبَتُهُ الْهَلَاكُ وَالْخُسْرَانُ.

---

٩ - اَلصَّبْرُ وَالْجَزَعُ

إِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الْعَظِيمَةِ، وَهُوَ مِنْ حُسْنِ تَوْفِيقِ اللهِ لِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، وَمِنَ الْعَلَامَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى سَعَادَتِهِ.

وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: اَلصَّبْرُ عَلَى الطَّاعَاتِ، وَالصَّبْرُ عَنِ الْمَعَاصِي، وَالصَّبْرُ عَلَى الْمَصَائِبِ.

(١) فَالْقِسْمُ الْأَوَّلُ: يَكُوْنُ الصَّبْرُ عَلَى امْتِثَالِ أَوَامِرِ اللّٰهِ تَعَالٰى: فَيَصْبِرُ عَلَى إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، فِي حَالَةِ الصِّحَّةِ وَالْمَرَضِ، وَفِي السَّفَرِ وَالْإِقَامَةِ، وَفِي جَمِيْعِ الْحَالَاتِ، مَعَ الْإِتْيَانِ بِجَمِيْعِ شُرُوْطِهَا وَأَرْكَانِهَا، وَعَدَمِ التَّقْصِيْرِ فِي سُنَنِهَا. قَالَ اللّٰهُ تَعَالٰى: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا) وَيَصْبِرُ عَلَى إِسْبَاغِ الْوُضُوْءِ، قَالَ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللّٰهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قَالُوْا: بَلٰى يَا رَسُوْلَ اللّٰهِ، قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوْءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذٰلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذٰلِكُمُ الرِّبَاطُ. وَيَصْبِرُ أَيْضًا عَلَى إِخْرَاجِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَعَلٰى طَلَبِ الْعِلْمِ، وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، إِلٰى غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الْمَأْمُوْرَاتِ. قَالَ اللّٰهُ تَعَالٰى: (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُوْنَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) وَقَالَ تَعَالٰى: (وَاصْبِرُوْا إِنَّ اللّٰهَ مَعَ الصَّابِرِيْنَ) وَقَالَ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ.

(٢) وَالْقِسْمُ الثَّانِي: اَلصَّبْرُ عَنِ الْمَعَاصِي، وَهُوَ أَعْلَى أَقْسَامٍ

الصَّبرِ وأفضلها. ويكونُ بتركِ المَنهيَّاتِ: كعقوقِ الوالدينِ، وإيذاءِ النَّاسِ، وأكلِ أموالِهِم، وكالسَّرقةِ وقتلِ النَّفسِ، وشُربِ الخمرِ والزِّنى والنَّظرِ إلى المحرَّماتِ، إلى غيرِ ذلكَ، ولاسيَّما المعاصي المُنتشرةِ المألوفةِ بينَ النَّاسِ: كالغيبةِ والنَّميمةِ، والكِبرِ والحقدِ والحسدِ فما أحوجَ الإنسانَ إلى الصَّبرِ عنها، فإنَّهُ أشدُّ أنواعِ الصَّبرِ، وبذلكَ ينالُ رضا اللهِ، ويَسلَمُ مِن غضبِهِ وسخطِهِ.

قالَ اللهُ تعالى: (قدْ أفلحَ المؤمنونَ. الَّذينَ هُم في صلاتِهِم خاشعونَ. والَّذينَ هُم عنِ اللَّغوِ معرضونَ والَّذينَ هُم للزَّكاةِ فاعلونَ. والَّذينَ هُم لفروجِهِم حافظونَ إلاَّ على أزواجِهِم أو ما ملكتْ أيمانُهُم فإنَّهُم غيرُ ملومينَ. فمنِ ابتغى وراءَ ذلكَ فأولئكَ هُمُ العادونَ. والَّذينَ هُم لأماناتِهِم وعهدِهِم راعونَ. والَّذينَ هُم على صلواتِهِم يحافظونَ. أولئكَ هُمُ الوارثونَ. الَّذينَ يرثونَ الفردوسَ هُم فيها خالدونَ.)

(٣) والقسمُ الثَّالثُ: الصَّبرُ على المصائبِ: بأنْ يرضى بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ، ويحذرَ منَ الجزعِ، لأنَّهُ حرامٌ ومفوِّتٌ للأجرِ، ولا يُكثرَ الشَّكوى إلى النَّاسِ إذا مرضَ، أو ضاعَ عليهِ شيءٌ، أو آذاهُ أحدٌ، أو ماتَ أحدُ أسرتِهِ أو الأعزَّاءِ عليهِ، أو ضاقتْ

مَعِيشَتَهُ، أَوْلَمْ يَنَلْ شَيْئًا مِنْ مَقَاصِدِهِ، بَلْ يُسَلِّمِ الأَمْرَ إِلَى اللَّهِ الَّذِي بِيَدِهِ جَمِيعُ الأُمُورِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَيَشْتَكِي إِلَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ سَيِّدِنَا يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ) وَقَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ سَيِّدِنَا أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ).

وَأَنْ يُقَابِلَ الْمَصَائِبَ بِكُلِّ صَبْرٍ وَثَبَاتٍ، فَبِذَلِكَ يَنَالُ ثَوَابًا عَظِيمًا وَيُفَرِّجُ اللَّهُ عَنْهُ حُزْنَهُ، وَيُبَلِّغُهُ مَقْصُودَهُ فِي الدُّنْيَا أَوْ يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) وَقَالَ تَعَالَى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ).

وَفِي الْحَدِيثِ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى النَّاسُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِمْ، فَمَنْ ثَخُنَ دِينُهُ: اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَمَنْ

ضَعُفَ دِينُهُ: ضَعُفَ بَلَاؤُهُ. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُصِيبُهُ الْبَلَاءُ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: انْتِظَارُ الْفَرَجِ عِبَادَةٌ. وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا: وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللّٰهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ. وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْقِسْمِ الصَّبْرُ عَلَى الْمَصَائِبِ الْخَفِيفَةِ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ مِصْبَاحَ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ طَفِيَ فَاسْتَرْجَعَ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهَا: إِنَّمَا هَذَا مِصْبَاحٌ! فَقَالَ: كُلُّ مَا سَاءَ الْمُؤْمِنَ فَهُوَ مُصِيبَةٌ.

وَيُسَنُّ أَنْ يَسْتَرْجِعَ عِنْدَ وُقُوعِ الْمَصَائِبِ. أَيْ يَقُولُ: إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. وَفِي الْحَدِيثِ: مَنِ اسْتَرْجَعَ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ آجَرَهُ اللّٰهُ فِيهَا، وَأَخْلَفَ عَلَيْهِ خَيْرًا.

فَلَازِمِ الصَّبْرَ دَائِمًا فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ تَحْظَ بِنَيْلِ الْآمَالِ، وَتَسْلَمْ مِنَ الْأَهْوَالِ وَتَأَمَّلْ هَذَا الْحَدِيثَ الشَّرِيفَ.

الصَّبْرُ ثَلَاثَةٌ: فَصَبْرٌ عَلَى الْمُصِيبَةِ، وَصَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ. وَصَبْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ. فَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْمُصِيبَةِ حَتَّى يَرُدَّهَا بِحُسْنِ عَزَائِهَا: كَتَبَ اللّٰهُ لَهُ ثَلَاثَمِائَةِ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ صَبَرَ عَلَى الطَّاعَةِ، كَتَبَ اللّٰهُ لَهُ سِتَّمِائَةِ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ تُخُومِ الْأَرَضِينَ إِلَى مُنْتَهَى الْأَرَضِينَ.

وَمَنْ صَبَرَ عَنِ الْمَعْصِيَةِ : كَتَبَ اللهُ لَهُ تِسْعَمِائَةِ دَرَجَةٍ ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ تُخُومِ الأَرَضِيْنَ ، إِلَى مُنْتَهَى الْعَرْشِ مَرَّتَيْنِ . وَقَالَ الشَّاعِرُ :

اِصْبِرْ قَلِيلاً وَكُنْ بِاللهِ مُعْتَصِمًا
لاَ تَعْجَلَنَّ فَإِنَّ الْعَجْزَ فِي الْعَجَلِ

اَلصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ
لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ

وَقَالَ آخَرُ :

وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرٍ يُحَاوِلُهُ
وَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلاَّ فَازَ بِالظَّفَرِ

وَقَالَ آخَرُ :

لاَ تَيْأَسَنَّ وَإِنْ طَالَتْ مُطَالَبَةٌ
إِذَا اسْتَعَنْتَ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرَجَا

أَخْلِقْ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ
وَمُدْمِنِ الْقَرْعِ لِلأَبْوَابِ أَنْ يَلِجَا

وَحُكِيَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا عَزَّى ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنْ أَبِيهِ فَقَالَ :

إِصْبِرْ نَكُنْ بِكَ صَابِرِينَ فَإِنَّمَا
صَبْرُ الرَّعِيَّةِ بَعْدَ صَبْرِ الرَّأْسِ
خَيْرٌ مِنَ الْعَبَّاسِ أَجْرُكَ بَعْدَهُ
وَاللهُ خَيْرٌ مِنْكَ لِلْعَبَّاسِ

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَا عَزَّانِي أَحَدٌ أَحْسَنَ مِنْ تَعْزِيَتِهِ.

١٠ـ عَاقِبَةُ الصَّابِرِينَ

(١) لَقَدْ بَعَثَ اللهُ الأَنْبِيَاءَ إِلَى أَقْوَامِهِمْ ، وَجَعَلَهُمْ أُولِي عَزْمٍ ، أَيْ : ثَبَاتٍ وَصَبْرٍ عَلَى الشَّدَائِدِ ، وَكَانَ أَفْضَلَهُمْ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَكَمْ أُوذِيَ مِنْ أَوَّلِ بِعْثَتِهِ إِلَى وَفَاتِهِ ، فَصَبَرَ غَايَةَ الصَّبْرِ ، اِمْتِثَالاً لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) وَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِ أَذَى الْمُشْرِكِينَ قَالَ لِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ : وَاللهِ يَا عَمَّاهُ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي ، عَلَى أَنْ أَتْرُكَ شَيْئًا مِمَّا جِئْتُ بِهِ عَنْ رَبِّي مَا فَعَلْتُ ، حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلِكَ دُونَهُ . وَطَرَحُوا عَلَيْهِ سَلَى جَزُورٍ ، وَهُوَ سَاجِدٌ أَمَامَ الْكَعْبَةِ ، وَخَنَقُوهُ وَهَمُّوا بِقَتْلِهِ ، وَأَخْرَجُوهُ مِنْ

وَطَنِهِ، وَكَسَرُوا أَسْنَانَهُ، وَأَدْمَوْا وَجْهَهُ، وَأَسْقَطُوهُ فِي حُفْرَةٍ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ، وَسَبُّوهُ وَكَذَّبُوهُ، وَسَحَرُوهُ وَسَمُّوهُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَذِيَّاتِ الْبَالِغَاتِ، وَآذَوْا أَيْضًا أَهْلَ بَيْتِهِ وَأَصْحَابَهُ، فَصَبَرَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ إِلَى أَنْ أَظْهَرَ اللهُ دِينَهُ، وَأَقَرَّ عَيْنَهُ بِنَجَاحِ مُهِمَّتِهِ، فَلَحِقَ بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

(٢) وَصَبَرَ سَيِّدُنَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى أَذَى قَوْمِهِ، وَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، وَكَانُوا يَضْرِبُونَهُ حَتَّى يُغْشَى عَلَيْهِ. وَصَبَرَ سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى نَارِ نُمْرُوذَ، وَعَلَى ذَبْحِ ابْنِهِ سَيِّدِنَا إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى سَلَّمَهُ اللهُ مِنْهُمَا. وَصَبَرَ سَيِّدُنَا يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى فَقْدِ وَلَدِهِ يُوسُفَ، حَتَّى ابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ. وَصَبَرَ سَيِّدُنَا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْبِئْرِ وَالسِّجْنِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الامْتِحَانَاتِ. وَصَبَرَ سَيِّدُنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَفِرْعَوْنَ وَقَارُونَ. وَصَبَرَ سَيِّدُنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى أَذَى الْيَهُودِ. وَصَبَرَ غَيْرُهُمْ مِنَ الأَنْبِيَاءِ فَمِنْهُمْ مَنْ نُشِرَ بِالْمَنَاشِيرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ سُلِخَتْ جِلْدَةُ رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أُحْرِقَ بِالنَّارِ.

(٣) وَكَانَ مِنْ قِصَصِ سَيِّدِنَا أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنَّ اللهَ

أعطاه من الدنيا حظًا وافرًا: من النعم والدواب والبساتين، وأعطاه أهلًا وولدًا: من رجال ونساء، ولكن ذلك كله لم يشغله عن عبادة ربه، والقيام بواجباته، فكان رحيمًا بالمساكين، مكرمًا للضيف، كافلًا للأيتام والأرامل. فابتلاه الله ببلايا شديدة في بدنه وأهله وماله، ليكون عبرة له ولغيره وليعلموا أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الواجب على الإنسان: أن يصبر على حالتي الضراء والسراء. وأصاب سيدنا أيوب مرض في بدنه دام ثماني عشرة سنة، وانهدم البيت على أولاده فماتوا جميعًا، وأصابت أمواله آفات فهلكت. فوسوس إليه الشيطان، فعصمه الله من شر وسوسته، وسلمه من فتنته، فقابل ذلك كله بصبر وتسليم، كما قابل النعمة بالحمد والشكر. فأثنى الله عليه في القرآن بقوله تعالى: (إنا وجدناه صابرًا نعم العبد إنه أواب) وتضرع إلى مولاه والتجأ إليه، في دفع البلاء عنه، كما قال تعالى: (وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين. فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) فمنّ الله عليه: بأن أعاد إليه شبابه

وَصِحَّتَهُ، وَضَعَّفَ لَهُ مَا كَانَ لَهُ مِنَ الأَهْلِ وَالوَلَدِ وَالمَالِ، وَصَارَ أَحْسَنَ مِمَّا كَانَ.

٤) وَهٰكَذَا صَبَرَ سَيِّدُنَا دَاوُدُ وَسُلَيْمَانُ، وَيُونُسُ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيٰى، وَمَشٰى عَلٰى طَرِيقَتِهِمُ الأَوْلِيَاءُ وَالعُلَمَاءُ فَصَبَرُوا، وَبِالثَّوَابِ الجَزِيلِ فَازُوا. وَمِنْ ذٰلِكَ مَا وَرَدَ فِي حَدِيثٍ رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ مَضْمُونُهُ: أَنَّ ثَلاثَةَ نَفَرٍ فِي الزَّمَانِ المَاضِي امْتُحِنَ أَوَّلُهُمْ فِي مَحَبَّةِ أَبْنَائِهِ. فَصَبَرَ فَسَلِمَ مِنْ عُقُوقِ وَالِدَيْهِ. وَالثَّانِي اخْتُبِرَ فِي مَحَبَّةِ بِنْتِ عَمِّهِ، فَصَبَرَ وَنَجَا مِنَ الزِّنٰى. وَالثَّالِثُ ابْتُلِيَ فِي مَحَبَّةِ مَالِهِ، فَثَبَتَ عَلَى الحَقِّ، وَأَدَّى الأَمَانَةَ، فَسَلِمَ مِنَ الخِيَانَةِ. وَلَفْظُ الحَدِيثِ: انْطَلَقَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَتّٰى آوَاهُمُ المَبِيتُ إِلٰى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الجَبَلِ، فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ فَقَالُوا: إِنَّهُ لا يُنَجِّيكُمْ مِنْ هٰذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ، قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللّٰهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَلا مَالاً، فَنَأٰى بِي طَلَبُ الشَّجَرِ يَوْمًا فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتّٰى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا، وَأَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً أَوْ مَالاً، فَلَبِثْتُ وَالقَدَحُ عَلٰى يَدِي، أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا

حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهُ قَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي ابْنَةُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ. فَأَرَدْتُهَا عَلَى نَفْسِهَا فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ. فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفَعَلَتْ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا، قَالَتْ: اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا، وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ، وَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ، فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي. فَقُلْتُ كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ. فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَسْتَهْزِئْ بِي، فَقُلْتُ لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ. فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ.

١١ـ الشُّكْرُ وَالْكُفْرَانُ

(١) إعْلَمْ : أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلَالُهُ، أَنْعَمَ عَلَيْكَ بِنِعَمٍ كَثِيرَةٍ عَظِيمَةٍ، خَاصَّةٍ وَعَامَّةٍ. فَالنِّعَمُ الْخَاصَّةُ هِيَ: مِثْلُ نِعْمَةِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَنِعْمَةِ الْوُجُودِ وَالْعَقْلِ وَالْعِلْمِ، وَنِعْمَةِ الرِّزْقِ وَالصِّحَّةِ وَالسَّلَامَةِ، وَنِعْمَةِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالنَّوْمِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى. قَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا) وَقَالَ تَعَالَى: (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ). وَأَمَّا النِّعَمُ الْعَامَّةُ: فَبِأَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ، وَمَا فِيهَا مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ لِمَنَافِعِ عِبَادِهِ، وَكَذَلِكَ الْأَرْضُ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْبِحَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْجِبَالِ، وَالرِّيَاحِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْأَشْجَارِ. قَالَ تَعَالَى: (اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

(٢) فَيَجِبُ عَلَيْكَ: أَنْ تَشْكُرَ رَبَّكَ عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ. قَالَ تَعَالَى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ).

وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. وَإِذَا شَكَرْتَ مَوْلَاكَ: فَلَا شَكَّ أَنَّهُ يُجَازِيكَ عَلَىٰ شُكْرِهِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ وَيَزِيدُكَ مِنْ نِعَمِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وَأَمَّا إِذَا تَرَكْتَ شُكْرَهُ: فَإِنَّهُ يَغْضَبُ عَلَيْكَ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وَمَنْ لَمْ يَشْكُرْ نِعَمَ اللهِ عَلَيْهِ: فَقَدْ عَرَّضَهَا لِلزَّوَالِ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: أَلْحَمْدُ عَلَى النِّعْمَةِ أَمَانٌ مِنْ زَوَالِهَا. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا ... فَإِنَّ الْمَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمْ

وَحَامِ عَلَيْهَا بِشُكْرِ الْإِلٰـ ... ـهِ فَإِنَّ الْإِلٰهَ سَرِيعُ النِّقَمْ

(٣) وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ غَارِقُونَ فِي نِعَمِ اللهِ الْكَرِيمِ، وَلٰكِنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنْ شُكْرِهِ. كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾. وَلَا جَرَمَ أَنَّ فَائِدَةَ الشُّكْرِ رَاجِعَةٌ إِلَيْكَ، وَأَنَّ اللهَ لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ شُكْرِ أَحَدٍ ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ وَمِنْ دَعَوَاتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: اَللّٰهُمَّ اجْعَلْنِي شَكُورًا، وَاجْعَلْنِي صَبُورًا، وَ اجْعَلْنِي فِي عَيْنِي صَغِيرًا، وَفِي أَعْيُنِ النَّاسِ كَبِيرًا. وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا: عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذٰلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ.

(٤) وَالشُّكْرُ: صَرْفُ الْعَبْدِ جَمِيعَ مَا أَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِ إِلَىٰ مَا خُلِقَ لِأَجْلِهِ. وَهُوَ يَكُونُ: بِالْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْأَعْضَاءِ. فَالشُّكْرُ بِالْقَلْبِ: أَنْ تَذْكُرَ رَبَّكَ دَائِمًا بِحُضُورِ قَلْبٍ، مَعَ الْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ، وَتَتَصَوَّرَ جَمِيعَ النِّعَمِ مِنْهُ. وَالشُّكْرُ بِاللِّسَانِ: أَنْ تَذْكُرَهُ بِالتَّحْمِيدَاتِ الدَّالَّةِ عَلَىٰ شُكْرِهِ، وَأَفْضَلُهَا كَمَا فِي الْحَدِيثِ: اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، حَمْدًا يُوَافِي نِعَمَهُ، وَيُكَافِيءُ مَزِيدَهُ، وَأَنْ تَسْتَعْمِلَ لِسَانَكَ: فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَكَلَامِ الْعُلَمَاءِ، وَفِي ذِكْرِ اللّٰهِ وَالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَكَلَامِ الْخَيْرِ. قَالَ اللّٰهُ تَعَالَىٰ: (لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ).

(٥) وَالشُّكْرُ بِالْأَعْضَاءِ: أَنْ تَقُومَ بِعِبَادَتِهِ، فَتُصَلِّيَ وَتُزَكِّيَ مَالَكَ، وَتَصُومَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ، وَتَعْمَلَ بِأَعْضَائِكَ مَا يُرْضِيهِ

سُبحانَهُ وتعالىٰ: فتمشي بِرِجليكَ إلى طلبِ العِلمِ، وإلى الصَّلاةِ، وفي قضاءِ حوائجِكَ، وحوائجِ النَّاسِ، لا سيَّما والِديكَ وأساتذتِكَ.

وتحذرَ: أن تمشي بهما إلى معصيةٍ، كيلا تكفُرَ نِعمةَ الرِّجلينِ.

وتعملَ بيديكَ: في قضاءِ أشغالِكَ. وتخصَّ اليدَ اليُمنى بالأعمالِ النَّظيفةِ. وفي الحديثِ: كانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ يجعلُ يمينَهُ لأكلِهِ وشُربِهِ ووُضوئِهِ، وثيابِهِ وأخذِهِ وعطائِهِ، وشِمالَهُ لِما سِوى ذٰلكَ. وتبتعدَ كلَّ البُعدِ مِن أن تؤذي بهما أحدًا أو تضربَهُ، أو تسرقَ مالَهُ، أو تخونَهُ في أمانةٍ أو وديعةٍ، أو تكتُبَ بهما: ما لا يجوزُ أن تتكلَّمَ بِهِ، فإنَّ القلمَ أحدُ اللِّسانينِ. وأمَّا شُكرُ نِعمةِ العينينِ: فأن تنظُرَ بهما إلى المُصحفِ الشَّريفِ، والحديثِ المُنيفِ، والكُتُبِ النَّافعةِ، وتنظُرَ الفُقراءَ والمساكينَ، واليتامىٰ والمنكوبينَ: فترحمَهُم وتواسيَهُم. وإلى الجُهَّالِ والضَّالِّينَ: فتُعلِّمَهُم وترشدَهُم إلى سبيلِ نجاتِهِم وسعادتِهِم. وتنظُرَ بهما إلى مقاصِدِكَ الحسنةِ، وإلى عجائبِ مخلوقاتِ اللهِ. وتتفكَّرَ في عظمتِهِ وقُدرتِهِ. وأن لا تستعمِلَ العينينِ، في النَّظرِ إلى المُحرَّماتِ، أو إلى العوراتِ، وجاءَ في الحديثِ: لعنَ اللهُ النَّاظرَ والمنظورَ إليهِ. أو في التجسُّسِ على عُيوبِ غيرِكَ، والنَّظرِ إليهِ بالاحتقارِ،

وَالْإِسْتِهْزَاءِ . وَفِي الْحَدِيثِ : طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ . وَوَرَدَ أَيْضًا : بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ . وَشُكْرُ نِعْمَةِ الْأُذُنَيْنِ : أَنْ تَسْتَعْمِلَهُمَا فِي الْإِسْتِمَاعِ إِلَى الْخَيْرِ ؛ كَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَالْمَوَاعِظِ وَالْعُلُومِ ، وَتَحْفَظَهُمَا مِنَ الشَّرِّ ؛ كَسَمَاعِ الْغِيبَةِ ، وَالنَّمِيمَةِ ، وَالْكَلَامِ الْبَذِيءِ . وَفِي الْحَدِيثِ إِنَّ الْمُسْتَمِعَ شَرِيكُ الْقَائِلِ ، وَهُوَ أَحَدُ الْمُغْتَابِينَ .

(٦) وَعَلَيْكَ أَنْ تَسْتَعْظِمَ نِعَمَ اللهِ عَلَيْكَ : بِأَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَكَ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا . كَيْ تَشْكُرَ رَبَّكَ تَعَالَى ، وَلَا تَزْدَرِيَ نِعَمَهُ . وَأَمَّا فِي أُمُورِ الدِّينِ : فَعَلَيْكَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكَ ، لِيَزْدَادَ نَشَاطُكَ فِي الْخَيْرِ ، وَتَعْظُمَ رَغْبَتُكَ فِي الطَّاعَةِ . قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : مَنْ نَظَرَ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ ، وَنَظَرَ فِي الدِّينِ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ ، كَتَبَ اللهُ صَابِرًا وَشَاكِرًا . وَمَنْ نَظَرَ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَهُ ، وَفِي الدِّينِ إِلَى مَنْ هُوَ دُونَهُ : لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ صَابِرًا وَلَا شَاكِرًا .

وَقَالَ الشَّاعِرُ :

مَنْ شَاءَ عَيْشًا رَحِيبًا يَسْتَطِيلُ بِهِ

فِي دِينِهِ ثُمَّ فِي دُنْيَاهُ إِقْبَالَا

فَلْينظُرَنَّ إلى من فوقَه ورعًا

وَلْينظُرَنَّ إلى منْ دُونَهُ مالاً

وإذا رأيت أحدًا مُبتلىً في دِينِهِ، أو عقلِهِ، أو بدنِهِ، أو في غيرِ ذلِكَ: يُسَنُّ لكَ أنْ تسجُدَ سُجُودَ الشُّكرِ لِلَّهِ على السَّلامَةِ مِنْ ذلِكَ البلاءِ، وَيُسَنُّ أيضًا أنْ تقولَ سِرًّا، بحيثُ لا يسمَعُهُ المُبْتَلى، لِئلاَّ يتألَّمَ بذلِكَ: الحمدُ لِلَّهِ الَّذِي عافاني مِمَّا ابتلاكَ بِهِ، وفضَّلني على كثِيرٍ ممَّنْ خلق تفضيلاً، وَوَرَدَ في الحدِيثِ: أنَّ منْ قالَ ذلِكَ: لمْ يُصِبْهُ ذلِكَ البلاءُ دائِمًا ما عاشَ.

(٧) وَمِنْ شُكرِ اللهِ تعالى: أنْ تشكُرَ مَنْ صنعَ إليكَ معرُوفًا، وخصُوصًا: والدَيكَ وأساتذتِكَ. وفي الحدِيثِ: أشكَرُ النَّاسِ لِلَّهِ: أشكرُهُم لِلنَّاسِ. وورد أيضًا: منْ أتى إليكم معرُوفًا: فكافِئُوهُ، فإنْ عجزتُم عن مكافأتِهِ فادْعُوا لهُ حتَّى تعلمُوا أنْ قدْ شكرتُم، فإنَّ اللهَ يحِبُّ الشَّاكِرِينَ. وفي الحدِيثِ الآخرِ: لا يشكُرُ اللهَ: منْ لا يشكُرُ النَّاسَ. وأمَّا الَّذِي لا يشكُرُ منْ أحسنَ إليهِ: فهُوَ اللَّئيمُ الخبِيثُ النَّفسِ. كما قالَ الشَّاعِرُ:

أُعَلِّمُـهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَـوْمٍ
فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِى
وَكَمْ عَلَّمْتُهُ نَظْمَ الْقَـوَافِى
فَلَمَّا قَالَ قَـافِيَـةً هَجَانِى

---

١٢ ـ مَثَلٌ عُلْيَا فِى الصَّبْرِ

(١) عَنْ عَائِشَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ كَانَ النَّبِىُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ، فَقُلْتُ لَهُ: لِمَ تَصْنَعُ هٰذَا يَا رَسُولَ اللهِ وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا.

(٢) وَكَانَ الْفَقِيهُ أَبُو إِسْحَاقَ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنِ شَعْبَانَ الْقُرْطُبِىُّ رَحِمَهُ اللهُ: لَا يَخْرُجُ مِنْ مَنْزِلِهِ إِلَّا إِذَا أَخَذَ رِجْلَ وَالِدَتِهِ، فَوَضَعَهَا عَلَى خَدِّهِ، وَهُوَ يَقُولُ: اللّٰهُمَّ إِنَّكَ قُلْتَ فِى كِتَابِكَ: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ) وَإِنِّى قَدْ خَفَضْتُ لَهَا جَنَاحِى، فَاغْفِرْ لِى يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

(٣) وَحُكِىَ أَنَّ رَجُلًا بَلَغَ بِهِ الْكِبَرُ إِلَى أَنْ صَارَ ابْنُهُ يَحْمِلُهُ،

وَيُرَبِّيهِ وَيَغْذُوهُ كَالطِّفْلِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ يَوْمًا: يَا أَبَتِ قَدْ جَزَيْتُكَ، وَرَبَّيْتُكَ كَمَا رَبَّيْتَنِي، فَقَدِ اسْتَوَيْنَا. فَقَالَ أَبُوهُ: كَلَّا، قَالَ: وَكَيْفَ ذَاكَ؟ قَالَ الأَبُ: إِنِّي إِذْ كُنْتُ أُرَبِّيكَ كُنْتُ أَتَمَنَّى حَيَاتَكَ، وَأَنْتَظِرُ شَبَابَكَ، وَأَنْتَ الْيَوْمَ تَتَمَنَّى مَوْتِي.

(٤) وَفِي تَارِيخِ ابْنِ خَلِّكَانَ: رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَوَّلِينَ كَانَ يَأْكُلُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ دَجَاجَةٌ مَشْوِيَّةٌ، فَجَاءَهُ سَائِلٌ فَرَدَّهُ خَائِبًا، وَكَانَ الرَّجُلُ مُتْرَفًا. فَوَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ فُرْقَةٌ، وَذَهَبَ مَالُهُ، وَتَزَوَّجَ السَّائِلُ امْرَأَتَهُ، فَبَيْنَمَا الزَّوْجُ الثَّانِي يَأْكُلُ بَيْنَ يَدَيْهِ دَجَاجَةٌ مَشْوِيَّةٌ جَاءَهُ سَائِلٌ، فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: نَاوِلِيهِ الدَّجَاجَةَ، فَنَاوَلَتْهُ، وَنَظَرَتْ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ زَوْجُهَا الأَوَّلُ، فَأَخْبَرَتْهُ بِالْقِصَّةِ، فَقَالَ الزَّوْجُ الثَّانِي: أَنَا وَاللهِ ذَاكَ الْمِسْكِينُ الأَوَّلُ، الَّذِي خَيَّبَنِي، فَحَوَّلَ اللهُ نِعْمَتَهُ وَأَهْلَهُ إِلَيَّ لِقِلَّةِ شُكْرِهِ.

(٥) وَشَكَا بَعْضُهُمْ فَقْرَهُ إِلَى بَعْضِ أَرْبَابِ الْبَصَائِرِ، وَأَظْهَرَ شِدَّةَ اغْتِمَامِهِ بِهِ، فَقَالَ لَهُ: أَيَسُرُّكَ أَنَّكَ أَعْمَى، وَلَكَ عَشَرَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَالَ: أَيَسُرُّكَ أَنَّكَ أَخْرَسُ، وَلَكَ

عَشْرَةُ آلاَفِ دِرْهَمٍ ؟ فَقَالَ: لاَ ، فَقَالَ، أَيَسُرُّكَ أَنَّكَ أَقْطَعُ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ، وَلَكَ عِشْرُونَ أَلْفاً ؟ فَقَالَ: لاَ، فَقَالَ: أَيَسُرُّكَ أَنَّكَ مَجْنُونٌ، وَلَكَ عَشْرَةُ آلاَفِ دِرْهَمٍ ؟ فَقَالَ: لاَ، فَقَالَ: أَمَا تَسْتَحِي أَنْ تَشْكُوَ مَوْلاَكَ، وَلَهُ عِنْدَكَ عُرُوضٌ بِخَمْسِينَ أَلْفاً؟

(٦) وَدَخَلَ ابْنُ السَّمَّاكِ عَلَى بَعْضِ الْخُلَفَاءِ، وَبِيَدِهِ كُوزُ مَاءٍ يَشْرَبُهُ، فَقَالَ لَهُ: عِظْنِي، فَقَالَ: لَوْلَمْ تُعْطَ هٰذِهِ الشَّرْبَةَ إِلاَّ بِبَذْلِ جَمِيعِ أَمْوَالِكَ، وَإِلاَّ بَقِيتَ عَطْشَانَ، فَهَلْ كُنْتَ تُعْطِيهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ: لَوْلَمْ تُعْطَ إِلاَّ بِمُلْكِكَ كُلِّهِ، فَهَلْ كُنْتَ تَتْرُكُهُ ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَلاَ تَفْرَحْ بِمُلْكٍ لاَ يُسَاوِي شَرْبَةَ مَاءٍ.

وَمَغْزَى الْقِصَّةِ: أَنَّ نِعْمَةَ اللهِ عَلَى عَبْدِهِ فِي شَرْبَةِ مَاءٍ عِنْدَ الْعَطَشِ، أَعْظَمُ مِنْ مُلْكِ الْأَرْضِ كُلِّهَا.

---

١٣ - الحِلمُ وَالغَضَبُ

(١) الحِلمُ ضَبطُ النَّفسِ عِندَ الغَضَبِ، وَهُوَ: مِن أَشرَفِ الأَخلَاقِ، وَأَجمَلِ الآدَابِ: فَيَجِبُ عَلَيكَ أَن تَتَخَلَّقَ بِهِ، لِيَسلَمَ عِرضُكَ مِنَ الذَّمِّ، وَيَستَرِيحُ قَلبُكَ مِنَ الهَمِّ، وَتَنَالَ الثَّنَاءَ الجَمِيلَ، وَالأَجرَ الجَزِيلَ؛ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: (وَالكَاظِمِينَ الغَيظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ المُحسِنِينَ) وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ابتَغُوا الرِّفعَةَ عِندَ اللهِ، قَالُوا: وَمَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: تَصِلُ مَن قَطَعَكَ، وَتُعطِي مَن حَرَمَكَ، وَتَحلُمُ عَمَّن جَهِلَ عَلَيكَ.

وَمِن دُعَائِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ أَغنِنِي بِالعِلمِ، وَزَيِّنِي بِالحِلمِ، وَأَكرِمنِي بِالتَّقوَى، وَجَمِّلنِي بِالعَافِيَةِ. فَإِذَا أَسَاءَ إِلَيكَ أَحَدٌ: فَاحلُم عَنهُ، وَإِذَا اعتَذَرَ فَاقبَل عُذرَهُ. وَفِي الحَدِيثِ: مَنِ اعتَذَرَ إِلَيهِ أَخُوهُ بِمَعذِرَةٍ فَلَم يَقبَلهَا كَانَ عَلَيهِ مِنَ الخَطِيئَةِ مِثلُ صَاحِبِ مَكسٍ. وَفِي الحَدِيثِ الآخَرِ: مَن تَنَصَّلَ إِلَيهِ أَخُوهُ (أَيِ اعتَذَرَ مِن ذَنبِهِ) فَلَم يَقبَل: لَم يَرِد عَلَيَّ الحَوضَ.

وَقَالَ الشَّاعِرُ:

اِقْبَلْ مَعَاذِيرَ مَنْ يَأْتِيكَ مُعْتَذِرًا

إِنْ بَرَّ عِنْدَكَ فِيمَا قَالَ أَوْ فَجَرَا

فَقَدْ أَطَاعَكَ مَنْ يُرْضِيكَ ظَاهِرُهُ

وَقَدْ أَجَلَّكَ مَنْ يَعْصِيكَ مُسْتَتِرَا

(٢) وَلِلْحِلْمِ أَسْبَابٌ كَثِيرَةٌ: الأَوَّلُ: الرَّحْمَةُ لِلْجُهَّالِ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ، فَقَامَ النَّاسُ إِلَيْهِ لِيَقَعُوا فِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: دَعُوهُ، وَأَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ أَوْ قَالَ: ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ.

وَالثَّانِي: الْقُدْرَةُ عَلَى الإِنْتِقَامِ. وَفِي الْحَدِيثِ: إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ: فَاجْعَلِ الْعَفْوَ شُكْرًا لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ. كَمَا عَفَا الرَّسُولُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَنْ دُعْثُورٍ الَّذِي أَرَادَ قَتْلَهُ. وَالأَعْرَابِيِّ الَّذِي جَذَبَهُ مِنْ رِدَائِهِ، حَتَّى أَثَّرَ فِي كَتِفِهِ. وَالآخَرِ الَّذِي رَفَعَ عَلَيْهِ صَوْتَهُ، لَمَّا جَاءَ يَتَقَاضَاهُ دَيْنَهُ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ: دَعُوهُ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالاً.

وَعَفَا عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ الَّذِينَ آذَوْهُ أَشَدَّ الأَذَى، مُدَّةَ ثَلاَثَ عَشْرَةَ سَنَةً، حَتَّى أَخْرَجُوهُ مِنْ وَطَنِهِ مَكَّةَ. وَعَفَا عَنْ

أُنَاسٍ كَثِيرِينَ. وَفِي الْحَدِيثِ: مَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ بِهَا لِلهِ.

وَالثَّالِثُ: التَّبَاعُدُ عَنِ السِّبَابِ. وَفِي الْحَدِيثِ: الْمُتَسَابَانِ الشَّيْطَانَانِ يَتَعَادَيَانِ وَيَتَهَارَجَانِ. وَعَلَى الْأَخَصِّ اللَّعْنُ. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِطَعَّانٍ وَلَا لَعَّانٍ وَلَا فَاحِشٍ وَلَا بَذِيءٍ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

قُلْ مَا بَدَا لَكَ مِنْ زُورٍ وَمِنْ كَذِبٍ
حِلْمِي أَصَمُّ وَأُذْنِي غَيْرُ صَمَّاءِ

وَقَالَ آخَرُ:

أُحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ جَهْدِي
وَأَكْرَهُ أَنْ أَعِيبَ وَأَنْ أُعَابَا
وَأَصْفَحُ عَنْ سِبَابِ النَّاسِ حِلْمًا
وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ يَهْوَى السِّبَابَا

وَحُكِيَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِضِرَارِ بْنِ الْقَعْقَاعِ: وَاللهِ لَوْ قُلْتَ لِي وَاحِدَةً: لَسَمِعْتَ عَشْرًا، فَقَالَ لَهُ ضِرَارٌ: وَاللهِ لَوْ قُلْتَ عَشْرًا لَمْ تَسْمَعْ وَاحِدَةً. وَعَنْ سَيِّدِنَا عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ

اللهُ عَنهُمْ : أَنَّهُ سَبَّهُ رَجُلٌ . فَرَمى إِلَيهِ بِخَمِيصَةٍ (نَوعٌ مِنَ الثِّيَابِ) كَانَتْ عَلَيْهِ ، وَأَمَرَ لَهُ بِأَلفِ دِرْهَمٍ .

(٣) وَأَمَّا الْغَضَبُ : فَمَذْمُومٌ جِدًّا ، وَهُوَ مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ . قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : اَلْغَضَبُ يُفْسِدُ الإِيمَانَ ، كَمَا يُفْسِدُ الصَّبِرُ الْعَسَلَ . وَقَالَ أَيْضًا : مَا غَضِبَ أَحَدٌ إِلَّا أَشْفَى عَلَى جَهَنَّمَ . وَقَالَ لَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ : أَيُّ شَيءٍ أَشَدُّ ؟ قَالَ غَضَبُ اللهِ ، قَالَ : فَمَا يُبْعِدُنِي مِنْ غَضَبِ اللهِ ؟ قَالَ : لَا تَغْضَبْ . وَقَالَ سَيِّدُنَا عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ : اَلْغَضَبُ شُعْبَةٌ مِنَ الْجُنُونِ ، لِأَنَّ صَاحِبَهَا يَنْدَمُ ، فَإِنْ لَمْ يَنْدَمْ : فَجُنُونُهُ مُسْتَحْكَمٌ .

وَقَدْ يُؤَدِّي الْغَضَبُ بِصَاحِبِهِ إِلَى الإِنْتِحَارِ . كَالتِّلْمِيذِ الَّذِي يَرْسُبُ فِي الإِمْتِحَانِ ، أَوِ الرَّجُلِ الَّذِي يَشْكُو الْهَمَّ وَالْفَقْرَ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ ، وَضُعْفِ الإِيمَانِ . وَفِي الْحَدِيثِ : مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ : فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، يَتَرَدَّى فِيهَا ، خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا . وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ : فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا . وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ : فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ ،

يَجأُبها فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبدًا. رواه الْبُخَارِيّ.

(٤) فَإِذَا غَضِبْتَ: فَامْنَعْ غَضَبَكَ، وَلَا تَتَكَلَّمْ حِينَ الْغَضَبِ، كَيْلَا تَأْتِيَ بِكَلَامٍ تَتَأَسَّفُ مِنْهُ. وَاجْلِسْ إِذَا كُنْتَ قَائِمًا. وَفِي الْحَدِيثِ: إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ. وَفِيهِ أَيْضًا: إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ مِنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيَضْطَجِعْ. وَلَا تَنْسَ حِينَ الْغَضَبِ: أَنْ تَسْتَعِيذَ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. قَالَ تَعَالَى: (وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ) وَأَنْ تَقُولَ تَبَعًا لِلْوَارِدِ: أَعُوذُ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، اللّٰهُمَّ رَبَّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ، اِغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَأَذْهِبْ غَيْظَ قَلْبِي، وَأَجِرْنِي مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ. وَإِذَا لَمْ يَزُلْ غَضَبُكَ: فَتَوَضَّأْ، اِتِّبَاعًا لِقَوْلِهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ: فَلْيَتَوَضَّأْ بِالْمَاءِ، فَإِنَّمَا الْغَضَبُ مِنَ النَّارِ.

(٥) وَمِنْ أَسْبَابِ تَسْكِينِ الْغَضَبِ، أَنْ تُرَاعِيَ الْأُمُورَ الْآتِيَةَ:

أَوَّلًا: أَنْ تَتَأَمَّلَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ، وَالْأَحَادِيثَ النَّبَوِيَّةَ، الْوَارِدَةَ فِي فَضْلِ الْحِلْمِ وَالْعَفْوِ. رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ

وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَنْ لَهُ أَجْرٌ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلْيَقُمْ؛ فَيَقُومُ الْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ. ثُمَّ تَلَا (فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ).

وَثَانِيًا: أَنْ تَذْكُرَ اللهَ، وَتَسْتَشْعِرَ أَنَّ قُدْرَةَ اللهِ عَلَيْكَ: أَعْظَمُ مِنْ قُدْرَتِكَ عَلَى الْإِنْتِقَامِ مِمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ) قَالَ عِكْرِمَةُ يَعْنِي: إِذَا غَضِبْتَ. وَرُوِيَ أَنَّ خَادِمًا أَرْسَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي حَاجَةٍ فَأَبْطَأَ. فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: لَوْلَا الْقِصَاصُ لَأَوْجَعْتُكَ (أَيِ: الْقِصَاصُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

وَثَالِثًا: أَنْ لَا يُصْغِي إِلَى قَوْلِ الشَّيْطَانِ: إِنَّ تَرْكَ الْإِنْتِقَامِ: ذُلٌّ وَهَوَانٌ، فَهٰذَا كَذِبٌ مِنَ اللَّعِينِ، وَالْحَقُّ: أَنَّهُ عِزٌّ وَشَرَفٌ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: التَّوَاضُعُ لَا يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلَّا رِفْعَةً، فَتَوَاضَعُوا: يَرْفَعْكُمُ اللهُ تَعَالَى. وَالْعَفْوُ لَا يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلَّا عِزًّا، فَاعْفُوا: يُعِزَّكُمُ اللهُ.

وَرَابِعًا: أَنْ يُحَذِّرَ نَفْسَهُ سُوءَ عَاقِبَةِ الْإِنْتِقَامِ، وَأَنَّهُ يَزِيدُ الْعَدَاوَةَ، وَيُكَثِّرُ الْأَعْدَاءَ، وَيُورِثُ شَمَاتَتَهُمْ بِمَصَائِبِهِ،

فَيَتَكَدَّرُ عَلَيْهِ عَيْشُهُ ، وَلَا يَتَفَرَّغُ لِطَلَبِ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ ، وَلَا لِأَشْغَالِهِ الْخَاصَّةِ .

وَخَامِسًا : أَنْ يَتَفَكَّرَ فِي قُبْحِ صُورَتِهِ عِنْدَ الْغَضَبِ : بِأَنْ يُعَبِّسَ وَجْهَهُ ، وَتَحْمَرَّ عَيْنَاهُ ، وَتَنْتَفِخَ أَوْدَاجُهُ ، وَتَضْطَرِبَ أَعْضَاؤُهُ وَقَدْ يَرْفُسُ الْأَرْضَ بِرِجْلَيْهِ ، وَيَضْرِبُ صَدْرَهُ ، وَيَكُونُ كَالْكَلْبِ الضَّارِي ، وَالسَّبُعِ الْعَادِي ، أَوْ كَالْمَجْنُونِ الْهَائِجِ : لِأَنَّ الْغَضَبَ أَفْقَدَهُ رُشْدَهُ ، وَضَيَّعَ عَلَيْهِ عَقْلَهُ ، وَقَدْ يَسُبُّ الْبَابَ إِذَا صَعُبَ عَلَيْهِ فَتْحُهُ ، وَيَكْسِرُ الْقَلَمَ الَّذِي يَكْتُبُ بِهِ ، وَيَلْعَنُ الْمَرْكُوبَ الَّذِي يَرْكَبُهُ ، وَيَسُبُّ الرِّيحَ إِذَا هَبَّتْ عَلَيْهِ : كَمَا رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا نَازَعَتْهُ الرِّيحُ رِدَاءَهُ فَلَعَنَهَا ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَا تَلْعَنْهَا : فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ مُسَخَّرَةٌ ، وَإِنَّهُ مَنْ لَعَنَ شَيْئًا لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ ؛ رَجَعَتِ اللَّعْنَةُ عَلَيْهِ .

(٦) وَضِدُّ ذٰلِكَ : الْحِلْمُ ، فَإِنَّهُ يُصَيِّرُ الْعَدُوَّ صَدِيقًا ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : (إِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) وَيَجِدُ الْحَلِيمُ نُصْرَةً مِنَ النَّاسِ ، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ : أَوَّلُ عِوَضِ الْحَلِيمِ مِنْ حِلْمِهِ : أَنَّ النَّاسَ أَنْصَارُهُ عَلَى الْجَاهِلِ . فَجَدِيرٌ بِالْعَاقِلِ : أَنْ لَا يَجْعَلَ بَيْنَهُ

وَبين أحدٍ عداوةً بقدر استطاعته. وفي الحديث: التَّوَدُّدُ إلى النَّاسِ نصفُ العقلِ. وأمَّا إذا ترك الحلم، وأحبَّ الإنتقام، فربَّما يؤدِّي به الغضبُ إلى قتلِ عدوِّه، وإذا لم يستطع: فربَّما يقتلُ نفسَه كمدًا وغيظًا. وكلُّ ذلك من كبائر الذُّنوبِ. قال اللهُ تعالى: (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) وفي الحديث: قتلُ المؤمنِ أعظمُ عند اللهِ من زوالِ الدُّنيا.

فالحلمُ والعفوُ: من أخلاقِ الأنبياءِ والمرسلين، والعلماءِ والصَّالحين. والغضبُ والإنتقامُ: من أخلاقِ الشَّياطين والمتكبِّرين، والسُّفهاءِ والأرذلين. والرَّجلُ القويُّ كلَّ القويِّ: هو الَّذي يملكُ زمامَ نفسه عند هيجانِ الغضبِ كما في الحديث: لَيسَ الشَّديدُ بالصُّرعةِ، إنَّما الشَّديدُ الَّذي يملكُ نفسَه عند الغضبِ.

(٧) وأمَّا الغضبُ لله، لا لهوى النَّفسِ: فمحمودٌ ومأمورٌ به: ويُسمَّى بالشَّجاعةِ الأدبيَّةِ: وذلك كأن يرى منكرًا يُعمل، وظلمًا يُرتكب، وحقًّا يُجحد: والحلمُ عند ذلك قبيحٌ جدًّا، ومنهيٌّ عنه. قال اللهُ تعالى: (وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى

الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) وَقَالَ تَعَالَى : (لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ . ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) وَفِي الْحَدِيثِ : مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ . وَأَفْضَلُ أَنْوَاعِ الْغَضَبِ : الْغَضَبُ عَلَى السُّلْطَانِ الظَّالِمِ ، أَوِ الْحَاكِمِ الْخَائِنِ ، الَّذِي يَبِيعُ بِلَادَهُ ، أَوْ يُفْسِدُ أُمُورَ الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ وَفِي الْحَدِيثِ : سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : أَيُّ الْجِهَادِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ .

(٨) فَكُنْ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يُحِبُّهُمُ اللهُ وَيُحِبُّونَهُ ، قَالَ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ . ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) . وَإِيَّاكَ أَنْ يَضْعُفَ غَضَبُكَ وَغَيْرَتُكَ عِنْدَ مُشَاهَدَةِ الْمُنْكَرِ : فَتَكُونَ مِنَ الْمُدَاهِنِينَ ، وَالْجُبَنَاءِ الْمَخْذُولِينَ .

١٤ - قِصَصُ الحُلَمَاءِ

(١) حُكِيَ أَنَّ حَطِيطًا الزَّيَّاتَ جِيءَ بِهِ إِلَى الحَجَّاجِ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: أَنْتَ حَطِيطٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ، فَإِنِّي عَاهَدْتُ اللهَ عِنْدَ المَقَامِ عَلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِنْ سُئِلْتُ لَأَصْدُقَنَّ وَإِنِ ابْتُلِيتُ لَأَصْبِرَنَّ، وَإِنْ عُوفِيتُ لَأَشْكُرَنَّ. قَالَ: فَمَا تَقُولُ فِيَّ؟ قَالَ: أَقُولُ: إِنَّكَ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ فِي الأَرْضِ، تَنْتَهِكُ المَحَارِمَ وَتَقْتُلُ بِالظِّنَّةِ. قَالَ: فَمَا تَقُولُ فِي أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ: عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ؟ قَالَ: أَقُولُ: إِنَّهُ أَعْظَمُ جُرْمًا مِنْكَ، وَإِنَّمَا أَنْتَ خَطِيئَةٌ مِنْ خَطَايَاهُ. قَالَ: فَقَالَ الحَجَّاجُ: ضَعُوا عَلَيْهِ العَذَابَ. قَالَ: فَانْتَهَى بِهِ العَذَابُ إِلَى أَنْ شُقِّقَ لَهُ القَصَبُ، ثُمَّ جَعَلُوهُ عَلَى لَحْمِهِ، وَشَدُّوهُ بِالحِبَالِ، ثُمَّ جَعَلُوا يَمُدُّونَ قَصَبَةً قَصَبَةً، حَتَّى انْتَحَلُوا لَحْمَهُ، فَمَا سَمِعُوهُ يَقُولُ شَيْئًا. قَالَ: فَقِيلَ لِلْحَجَّاجِ إِنَّهُ فِي آخِرِ رَمَقٍ. فَقَالَ: أَخْرِجُوهُ فَارْمُوا بِهِ فِي السُّوقِ. قَالَ جَعْفَرٌ: فَأَتَيْتُهُ أَنَا وَصَاحِبٌ لَهُ، فَقُلْنَا لَهُ: حَطِيطُ، أَلَكَ حَاجَةٌ؟ قَالَ: شَرْبَةُ مَاءٍ، فَأَتَوْهُ بِشَرْبَةٍ، ثُمَّ مَاتَ، وَكَانَ ابْنَ ثَمَانَ عَشْرَةَ سَنَةً رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ.

(٢) دَخَلَ عَلَى بَعْضِ العُلَمَاءِ صَدِيقٌ لَهُ، فَقَدَّمَ إِلَيْهِ طَعَامًا.

فخرجت امرأة الحكيم، وكانت سيئة الخلق، فرفعت المائدة، وأقبلت على شتم الحكيم، فخرج الصديق مغضبا. فتبعه الحكيم وقال له: تذكر يوم كنا في منزلك نطعم، فسقطت دجاجة على المائدة، فأفسدت ما عليها، فلم يغضب أحد منا؟ قال: نعم. قال: فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة. فسري عن الرجل غضبه وانصرف، وقال: صدق الحكيم: الحلم شفاء من كل ألم.

(٣) وضرب رجل قدم حكيم فأوجعه، فلم يغضب، فقيل له في ذلك، فقال: أقمته مقام حجر تعثرت به، فذبحت الغضب.

(٤) وسب رجل ابن عباس رضي الله عنهما، فلما فرغ قال: يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضيها؟ فنكس الرجل رأسه واستحى.

(٥) وحكي أنه كان لبعض النساك شاة، فرآها على ثلاث قوائم ثم قال: من فعل هذا بها؟ فقال غلام له: أنا، فقال: لم؟ قال: لأغمك بها، فقال: لا، بل لأغمن من أمرك بها اذهب فأنت حر.

١٥ - الكَرَمُ وَالبُخلُ

(١) إعلَمْ: أنّ اللّهَ خلقَ المالَ لِمَصالِحِ عِبادِهِ، وأمرَنا أنْ نتكرّمَ بِهِ على الفُقَراءِ والمحتاجِينَ. ونهانا أنْ نكنِزَهُ والنّاسُ في أشدِّ حاجةٍ إليهِ، ولِذلكَ أوجبَ علينا الزّكاةَ، وحثّنا على الصّدقةِ. قالَ اللّهُ تعالى: (وأقيموا الصّلاةَ وآتُوا الزّكاةَ) وقالَ تعالى: (ألّذينَ يُنفِقونَ أموالَهُمْ باللّيلِ والنّهارِ سِرّاً وعلانيةً فلهُمْ أجرُهُمْ عِندَ ربِّهِمْ ولا خوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يحزنونَ) وقالَ تعالى: (والّذِينَ يكنِزونَ الذّهبَ والفِضّةَ ولا يُنفِقونَها في سبيلِ اللّهِ فبشّرْهُمْ بعذابٍ أليمٍ. يومَ يُحمى عليها في نارِ جهنّمَ فتُكوى بِها جِباهُهُمْ وجُنوبُهُمْ وظُهورُهُمْ هذا ما كنزْتُمْ لِأنفُسِكُمْ فذوقوا ما كُنتُمْ تكنِزونَ)

(٢) والإنسانُ مطبوعٌ على حُبِّ المالِ، والحِرصِ على جمعِهِ كما قالَ اللّهُ تعالى: (بلْ تُؤثِرونَ الحياةَ الدُّنيا والآخِرةُ خيرٌ وأبقى) ولكِنْ يجِبُ عليكَ أنْ تُعوِّدَ نفسَكَ خُلُقَ الكَرَمِ حتّى تَسلَمَ مِنْ مرضِ البُخلِ، الّذي هوَ أشدُّ الأمراضِ، كما في الحديثِ أيُّ داءٍ أدْوى مِنَ البُخلِ. فإذا تعوّدتَ الكرَمَ، فأنتَ مُفلِحٌ

وَمَحبُوبٌ عِندَ اللهِ ثُمَّ عِندَ خَلقِهِ . كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ) وَجَاءَ فِي الحَدِيثِ : إِنَّ السَّخِيَّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ ، قَرِيبٌ مِنَ الجَنَّةِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ . وَإِنَّ البَخِيلَ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ ، بَعِيدٌ مِنَ الجَنَّةِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ . وَجَاهِلٌ سَخِيٌّ : أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ عَالِمٍ بَخِيلٍ .

(٣) وَالبُخلُ : شَرٌّ عَظِيمٌ ، وَبَلاءٌ وَخِيمٌ ، يُؤَدِّي إِلَى الخُصُومَاتِ وَالمُنَازَعَاتِ ، بَلْ إِلَى المُقَاتَلاتِ ، وَقَطْعِ الأَرْحَامِ وَالقَرَابَاتِ . قَالَ تَعَالَى : (هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَونَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ . فَمِنكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللهُ الغَنِيُّ وَأَنتُمُ الفُقَرَاءُ) وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ : مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوِّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ . يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ ثُمَّ يَقُولُ : أَنَا مَالُكَ ، أَنَا كَنْزُكَ ، ثُمَّ تَلا : (وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ) وَمَعْنَى شُجَاعٍ أَقْرَعَ : حَيَّةٌ قَدْ سَقَطَ جِلْدُ رَأْسِهَا لِكَثْرَةِ سُمِّهَا ، وَطُولِ عُمْرِهَا . وَمَعْنَى الزَّبِيبَةِ : نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فَوْقَ

عين الحية. وفي الحديث الآخر: إياكم والشح، فإنما أهلك من كان قبلكم الشح: أمرهم بالكذب فكذبوا. وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا.

(٤) والشيطان حريص على منع الإنسان من الصدقة، لأنه يعلم مقدار فضلها العظيم، فأراد بحسده وعداوته للإنسان، أن يحرمه من ذلك الثواب الجزيل، كما قال تعالى: (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) وفي الحديث: لا يخرج رجل شيئاً من الصدقة، حتى يفك عنها لحى سبعين شيطاناً، كلهم ينهى عنها.

فكن سمح النفس: مبسوط اليدين بالإنفاق. واحذر أن يغرك الشيطان بوساوسه، وثق بإخلاف الله عليك كل ما أنفقته في سبيله، قال تعالى: (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين) وفي الحديث القدسي: يا عبدي أنفق أنفق عليك، يد الله ملآى، لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغض ما بيده،

وفي الحديث أيضاً: ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان

يَنْزِلاَنِ ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اَللّٰهُمَّ اعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً ، وَيَقُولُ الآخَرُ : اَللّٰهُمَّ اعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً .

(٥) وَتَكَرَّمْ عَلىٰ أَهْلِكَ أَوَّلاً ، ثُمَّ عَلىٰ قَرَابَتِكَ ، الأَقْرَبِ فَالأَقْرَبِ . قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلىٰ مِسْكِينٍ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلىٰ أَهْلِكَ . أَعْظَمُهَا أَجْراً الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلىٰ أَهْلِكَ . وَقَالَ أَيْضاً : اَلصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ ، وَعَلَى الْقَرِيبِ صَدَقَتَانِ : صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ . وَقَالَ أَيْضاً . يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ، وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ : لاَيَقْبَلُ اللّٰهُ صَدَقَةً مِنْ رَجُلٍ ، وَلَهُ قَرَابَةٌ مُحْتَاجُونَ إِلىٰ صِلَتِهِ ، وَيَصْرِفُهَا إِلىٰ غَيْرِهِمْ . وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ : لاَ يَنْظُرُ اللّٰهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ وَعَلَيْكَ بِصَدَقَةِ السِّرِّ ، فَإِنَّهَا تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ ، كَمَا وَرَدَ . وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضاً : إِنَّ ثَوَابَهَا يُضَاعَفُ عَلىٰ ثَوَابِ الصَّدَقَةِ الظَّاهِرَةِ سَبْعِينَ ضِعْفاً .

(٦) وَمِنْ فَوَائِدِ الصَّدَقَةِ : أَنَّهَا تَدْفَعُ الْبَلاَءَ وَالْمَرَضَ ، وَتَحْفَظُ الْمَالَ كَمَا وَرَدَ : صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ . حَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ ، وَدَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ . مَا هَلَكَ مَالٌ فِي بَحْرٍ وَلاَ بَرٍّ ، إِلاَّ بِحَبْسِ الزَّكَاةِ . وَمِنْهَا : أَنَّهَا تُطَهِّرُ الْمُتَصَدِّقَ مِنَ

الذُّنُوبِ . قَالَ تَعَالَى : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) وَتُدْخِلُ السُّرُورَ عَلَى المَسَاكِينِ ، وَتَسْتَخْرِجُ الدُّعَاءَ مِنْهُمْ .
وَفِي الحَدِيثِ : أَفْضَلُ الأَعْمَالِ أَنْ تُدْخِلَ عَلَى أَخِيكَ المُؤْمِنِ سُرُورًا أَوْ تَقْضِيَ عَنْهُ دَيْنًا ، أَوْ تُطْعِمَهُ خُبْزًا . وَتَزِيدُ فِي الرِّزْقِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الحَدِيثُ فِي ذَلِكَ ، وَتَكُونُ الصَّدَقَةُ ظِلًّا لِصَاحِبِهَا مِنْ شِدَّةِ حَرِّ المَوْقِفِ يَوْمَ القِيَامَةِ . وَتَكُونُ سَبَبًا لِخِفَّةِ الحِسَابِ ، وَثِقَلِ المِيزَانِ ، وَالجَوَازِ عَلَى الصِّرَاطِ ، وَزِيَادَةِ الدَّرَجَاتِ فِي الجَنَّةِ .

(٧) وَإِذَا كُنْتَ فَقِيرًا فَتَصَدَّقْتَ بِالقَلِيلِ : كَانَ أَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ مِنَ التَّصَدُّقِ بِالكَثِيرِ مِنَ الأَغْنِيَاءِ . كَمَا فِي الحَدِيثِ : سَبَقَ دِرْهَمٌ أَلْفَ دِرْهَمٍ . وَلَا تَرُدَّ أَوَّلَ سَائِلٍ وَقَفَ بِبَابِكَ ؛ وَتَصَدَّقْ كُلَّ يَوْمٍ وَلَوْ بِاليَسِيرِ ، وَعَجِّلْهُ فِي الصَّبَاحِ ، كَمَا فِي الحَدِيثِ : بَاكِرُوا بِالصَّدَقَةِ ، فَإِنَّ البَلَاءَ لَا يَتَخَطَّى الصَّدَقَةَ ، وَاحْذَرْ أَنْ تَمُنَّ عَلَى الفُقَرَاءِ بِصَدَقَتِكَ . فَإِنَّ المَنَّ حَرَامٌ ، وَمُبْطِلٌ لِثَوَابِ الصَّدَقَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالمَنِّ وَالأَذَى) وَفِي الحَدِيثِ : لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنَّانٌ . وَعَلَيْكَ بِإِقْرَاضِ المُحْتَاجِينَ ، فَإِنَّ ثَوَابَ القَرْضِ عَظِيمٌ جِدًّا . قَالَ اللهُ تَعَالَى : (مَنْ ذَا الَّذِي

يُقرِضُ اللهَ قرضاً حسناً فيضاعفهُ لهُ ولهُ أجرٌ كريمٌ) وفي الآيةِ الأخرى: (فيضاعفهُ لهُ أضعافاً كثيرةً) وفي الحديثِ: رأيتُ ليلةَ أُسريَ بي على بابِ الجنةِ مكتوباً: الصدقةُ بعشرِ أمثالِها: والقرضُ بثمانيةَ عشرَ. فقلتُ يا جبريلُ: ما بالُ القرضِ أفضلُ من الصدقةِ؟ قالَ: لأنَّ السائلَ قد يسألُ وعندهُ ما يكفيهِ، والمستقرضُ لا يستقرضُ إلاَّ من حاجةٍ. وعليكَ بإيثارِ غيرِكَ على نفسِكَ، وهوَ: أن يكونَ عندكَ شيءٌ تحتاجُ إليهِ، فتعطيهِ غيرَكَ من المحتاجينَ، وتقدِّمهُم على نفسِكَ. والثوابُ على ذلكَ كبيرٌ جدّاً. قالَ اللهُ تعالى: (ويؤثرونَ على أنفسِهم ولو كانَ بهم خصاصةٌ) أي حاجةٌ. (ومن يوقَ شحَّ نفسِهِ فأولئكَ هم المفلحونَ).

١٦ـ كرمُ الرسولِ وأهلِ بيتِهِ عليهمُ السلامُ

(١) كانَ الرسولُ صلّى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلّمَ: أكرمَ الناسِ وأسخاهُم. يجودُ بكلِّ موجودٍ، ويُعطي عطاءً يعجزُ عنهُ الملوكُ مثلُ كسرى وقيصرَ. وما سُئلَ عن شيءٍ فقالَ: لا. وجاءَت

إِلَيْهِ امْرَأَةٌ بِبُرْدَةٍ نَسَجَتْهَا بِيَدِهَا، لِتَكْسُوَهُ إِيَّاهَا، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَلَبِسَهَا مُحْتَاجًا إِلَيْهَا. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ: أُكْسُنِيهَا، مَا أَحْسَنَهَا! فَقَالَ: نَعَمْ، فَجَلَسَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَجْلِسِ، ثُمَّ رَجَعَ فَطَوَاهَا، ثُمَّ أَرْسَلَ بِهَا إِلَيْهِ. فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ: مَا أَحْسَنْتَ، لَبِسَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ سَائِلًا، فَقَالَ: وَاللهِ مَا سَأَلْتُهُ لِأَلْبَسَهَا، إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتَكُونَ كَفَنِي، فَكَانَتْ كَفَنَهُ.

(٢) وَحُمِلَ إِلَيْهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تِسْعُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَوَضَعَهَا عَلَى حَصِيرٍ ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا فَقَسَمَهَا. فَمَا رَدَّ سَائِلًا حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا.

وَجَاءَ رَجُلٌ فَسَأَلَهُ فَقَالَ: مَا عِنْدِي شَيْءٌ، وَلَكِنِ ابْتَعْ عَلَيَّ، فَإِذَا جَاءَنَا شَيْءٌ قَضَيْنَاهُ.

وَرَدَّ سَبَايَا هَوَازِنَ، وَكَانُوا سِتَّةَ آلَافٍ. وَكَانَ جُودُهُ كُلُّهُ لِلّٰهِ، وَفِي سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ. وَكَانَ يُؤْثِرُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَوْلَادِهِ: يَأْتِي عَلَيْهِ الشَّهْرُ وَالشَّهْرَانِ، لَا يُوقَدُ فِي بَيْتِهِ نَارٌ، وَإِنَّمَا يَكْتَفِي هُوَ وَأَهْلُهُ بِالتَّمْرِ وَالْمَاءِ. وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَبِيتُ طَاوِيًا، وَيُصْبِحُ صَائِمًا،

وَكَانَ يَعْصِبُ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِهِ مِنَ الْجُوعِ . وَحُمِلَتْ إِلَيْهِ الْأَمْوَالُ فَلَمْ يَدَّخِرْ لِنَفْسِهِ مِنْهَا شَيْئًا ، بَلْ مَاتَ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ فِي ثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ مَلَكَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ ،

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ كَرَمِهِ وَإِيثَارِهِ الَّذِي حَيَّرَ الْأَفْكَارَ ، وَخَلَّدَ فِي بُطُونِهِ الْأَسْفَارِ . وَكَانَ أَهْلُ بَيْتِهِ وَأَصْحَابُهُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ يَقْتَفُونَ سَبِيلَهُ ، وَيَسْلُكُونَ مَسْلَكَهُ فِي الْبَذْلِ وَالسَّخَاءِ ، وَالْجُودِ وَالْعَطَاءِ . فَانْظُرْ إِلَى كَرَمِ سَيِّدِنَا أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حَتَّى أَنْفَقَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ : جَمِيعَ مَالِهِ ، وَسَيِّدِنَا عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَخْرَجَ نِصْفَ مَالِهِ . وَأَنْفَقَ سَيِّدُنَا عُثْمَانُ وَسَيِّدُنَا عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَمْوَالًا عَظِيمَةً .

(٣) وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، مَرِضَا فَعَادَهُمَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي نَاسٍ مَعَهُ : فَقَالُوا : يَا أَبَا الْحَسَنِ ، لَوْ نَذَرْتَ عَلَى وَلَدِكَ فَنَذَرَ عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَفِضَّةُ جَارِيَةٌ لَهُمَا ، إِنْ هُمَا بَرِئَا مِمَّا بِهِمَا أَنْ يَصُومُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، فَشُفِيَا وَمَا مَعَهُمْ شَيْءٌ ، فَاسْتَقْرَضَ

عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ مِن شَمعُونَ الخَيبَرِيِّ اليَهُودِيِّ ثَلَاثَ أَصوُعٍ مِن شَعِيرٍ، فَطَحَنَت فَاطِمَةُ رَضِيَ اللهُ عَنهَا صَاعًا، وَاختَبَزَت خَمسَةَ أَقرَاصٍ عَلَى عَدَدِهِم، فَوَضَعُوهَا بَينَ أَيدِيهِم لِيَفطِرُوا، فَوَقَفَ عَلَيهِم سَائِلٌ، فَقَالَ: اَلسَّلَامُ عَلَيكُم أَهلَ بَيتِ مُحَمَّدٍ، مِسكِينٌ مِن مَسَاكِينِ المُسلِمِينَ، أَطعِمُونِي أَطعَمَكُمُ اللهُ مِن مَوَائِدِ الجَنَّةِ، فَآثَرُوهُ وَبَاتُوا لَم يَذُوقُوا إِلَّا المَاءَ، وَأَصبَحُوا صِيَامًا، فَلَمَّا أَمسَوا وَوَضَعُوا الطَّعَامَ بَينَ أَيدِيهِم: وَقَفَ عَلَيهِم يَتِيمٌ، فَآثَرُوهُ، وَوَقَفَ عَلَيهِم أَسِيرٌ فِي الثَّالِثَةِ، فَفَعَلُوا مِثلَ ذٰلِكَ. فَلَمَّا أَصبَحُوا أَخَذَ عَلِيٌّ بِيَدِ الحَسَنِ وَالحُسَينِ رَضِيَ اللهُ عَنهُم، وَأَقبَلُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أَبصَرَهُم وَهُم يَرتَعِشُونَ كَالفِرَاخِ مِن شِدَّةِ الجُوعِ، قَالَ: مَا أَشَدَّ مَا يَسُوءُنِي مَا أَرَى بِكُم، وَقَامَ فَانطَلَقَ مَعَهُم، فَرَأَى فَاطِمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا فِي مِحرَابِهَا، قَدِ التَصَقَ ظَهرُهَا بِبَطنِهَا، وَغَارَت عَينَاهَا، فَسَاءَهُ ذٰلِكَ، فَنَزَلَ جِبرِيلُ وَقَالَ: خُذهَا يَا مُحَمَّدُ، هَنَّأَكَ اللهُ فِي أَهلِ بَيتِكَ فَأَقرَأَهُ سُورَةَ الدَّهرِ إِلَى آخِرِهَا، وَمِنهَا: (إِنَّ الأَبرَارَ يَشرَبُونَ مِن كَأسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا. عَينًا يَشرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفجِيرًا. يُوفُونَ بِالنَّذرِ وَيَخَافُونَ يَومًا كَانَ

شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ، وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا). ذَكَرَ هٰذَا الْحَدِيثَ الْآلُوسِيُّ وَالْفَخْرُ الرَّازِيُّ وَالزَّمَخْشَرِيُّ فِي تَفَاسِيرِهِمْ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ .

(٤) وَرُوِيَ أَنَّ السَّيِّدَةَ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَهْدَتْ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَغِيفَيْنِ وَبِضْعَةَ لَحْمٍ فَرَجَعَ بِهَا إِلَيْهَا أَيْ أَرْسَلَهَا إِلَيْهَا أَوْ أَخَذَهَا وَرَجَعَ بِهَا مُغَطَّاةً وَقَالَ هَلُمِّي يَا بُنَيَّةُ فَكَشَفَتْ عَنِ الطَّبَقِ فَإِذَا هُوَ مَمْلُوءٌ خُبْزًا وَلَحْمًا فَقَالَ لَهَا أَنَّىٰ لَكِ هٰذَا فَقَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ فَقَالَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي جَعَلَكِ شَبِيهَةً بِسَيِّدَةِ نِسَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ثُمَّ جَمَعَ عَلِيًّا وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَجَمَعَ أَهْلَ بَيْتِهِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ فَأَكَلُوا وَشَبِعُوا وَبَقِيَ الطَّعَامُ كَمَا هُوَ وَأَوْسَعَتْ عَلَىٰ جِيرَانِهَا (ذَكَرَ هٰذِهِ الْقِصَّةَ أَبُو السُّعُودِ فِي تَفْسِيرِهِ)

١٧ - اَلتَّوَاضُعُ وَالْكِبْرُ

(١) إِنَّ التَّوَاضُعَ خُلُقٌ مِنَ الْأَخْلَاقِ الشَّرِيفَةِ. وَقَدْ أَمَرَ اللهُ بِهِ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: فَقَالَ تَعَالَى: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ). وَقَالَ تَعَالَى: (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) وَوَصَفَ بِهِ أَوْلِيَاءَهُ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ). وَقَالَ: (وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا).

وَبِالتَّوَاضُعِ يَرْتَفِعُ قَدْرُ الْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. فَعَلَيْكَ بِمُلَازَمَةِ هٰذَا الْخُلُقِ الْعَظِيمِ. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: (إِذَا تَوَاضَعَ الْعَبْدُ: رَفَعَهُ اللهُ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ). وَقَالَ: التَّوَاضُعُ لَا يَزِيدُ الْعَبْدَ إِلَّا رِفْعَةً، فَتَوَاضَعُوا يَرْحَمْكُمُ اللهُ.

(٢) وَإِذَا عَرَفَ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ: عَرَفَ أَنَّهُ ذَلِيلٌ وَحَقِيرٌ لَا يَلِيقُ بِهِ إِلَّا التَّوَاضُعُ، وَعَرَفَ رَبَّهُ الْعَلِيَّ الْكَبِيرَ وَأَنَّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ الَّذِي تَلِيقُ بِهِ الْعَظَمَةُ وَالْكِبْرِيَاءُ. وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: اَلْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي،

فَمَنْ نَازَعَنِي فِيهِمَا أَوْ وَاحِدًا مِنْهُمَا: أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ وَلَا أُبَالِي. أَيْ أَنَّ الْعَظَمَةَ وَالْكِبْرِيَاءَ صِفَتَانِ مُخْتَصَّتَانِ بِاللهِ تَعَالَىٰ، وَشَبَّهَهُمَا بِالْإِزَارِ وَالرِّدَاءِ.

(٣) فَاحْذَرْ كُلَّ الْحَذَرِ مِنَ الْكِبْرِ وَالْإِعْجَابِ بِالنَّفْسِ. وَقَدْ ذَمَّ اللهُ الْكِبْرِيَاءَ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) وَقَالَ تَعَالَىٰ: (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ). وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) وَوَصَفَ بِهِ أَعْدَاءَهُ فَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: (إِنَّهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ) وَقَالَ: (وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ). وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيْنَا وَأَقْرَبَكُمْ مِنَّا فِي الْآخِرَةِ: أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيْنَا، وَأَبْعَدَكُمْ مِنَّا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: الْمُتَكَبِّرُونَ. وَقَالَ أَيْضًا: يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مِثْلِ صُوَرِ الذَّرِّ تَطَؤُهُمُ النَّاسُ. ثُمَّ يُسَاقُونَ إِلَىٰ سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ

يُقَالُ لَهُ: بُولَسُ يَعلُوهُمْ نَارُ الأَنيَارِ، يُسقَوْنَ مِنْ طِينَةِ الخَبَالِ: عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ.

(٤) وَأَسبَابُ الكِبرِ كَثِيرَةٌ: فَمِنهَا الكِبرُ بِالعِلمِ. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: آفَةُ العِلمِ الخُيَلَاءُ. وَقَبِيحٌ جِدًّا بِالعَالِمِ أَنْ يَتَكَبَّرَ، وَكَانَ الأَجْدَرُ بِهِ أَنْ يَتَوَاضَعَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا زَادَ عِلمُ المَرءِ زَادَ تَوَاضُعًا
وَإِنْ زَادَ جَهلُ المَرءِ زَادَ تَرَفُّعَا
كَذَا الغُصنُ مِنْ حَمْلِ الثِّمَارِ تَنَالُهُ
وَإِنْ يَعْرُ مِنْ حَمْلِ الثِّمَارِ تَمَنَّعَا

وَذَلِكَ لِأَنَّ العَالِمَ يَستَشعِرُ عِظَمَ مَسؤُولِيَّةِ العِلمِ، وَأَنَّهُ لَا يَستَطِيعُ أَنْ يُؤَدِّيَ شُكرَ اللهِ عَلَى نِعمَةِ العِلمِ، وَأَنَّهُ يَخَافُ مِنْ خَطَرِ الخَاتِمَةِ، فَلَا يَزَالُ خَاشِعًا لِرَبِّهِ، خَائِفًا عَلَى نَفسِهِ، وَمُتَوَاضِعًا لِغَيرِهِ، لِأَنَّهُ يَعلَمُ أَنَّ الكِبرَ لَا يَلِيقُ إِلَّا بِاللهِ، وَأَنَّهُ إِذَا تَكَبَّرَ أَبغَضَهُ مَولَاهُ، وَإِذَا تَوَاضَعَ أَحَبَّهُ وَتَوَلَّاهُ. وَفِي الحَدِيثِ القُدسِيِّ: إِنَّ لَكَ عِندِي قَدْرًا مَا لَمْ تَرَ لِنَفسِكَ قَدْرًا، فَإِنْ رَأَيتَ لِنَفسِكَ قَدْرًا: فَلَا قَدْرَ لَكَ عِندِي.

(٥) وَمِنْهَا الْكِبْرُ بِالْعِبَادَةِ وَالصَّلَاحِ ، وَالْكِبْرُ بِالْمَالِ وَالْجَمَالِ ، وَالنَّسَبِ وَالْقُوَّةِ. وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ. فَابْتَعِدْ عَنِ الْكِبْرِ وَإِنْ قَلَّ ، وَفِي الْحَدِيثِ : لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ . وَذَلِكَ لِأَنَّ الْكِبْرَ يَمْنَعُ صَاحِبَهُ مِنْ أَنْ يَتَخَلَّقَ بِالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ ، وَهِيَ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَوَاضَعَ وَ لَا أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ، وَلَا أَنْ يَعْفُوَ وَيَصْبِرَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ ، وَبِالْعَكْسِ يُغْرِيهِ الْكِبْرُ عَلَى التَّخَلُّقِ بِالْأَخْلَاقِ السَّيِّئَةِ ، وَهِيَ أَبْوَابُ النَّارِ ؛ كَالْحِقْدِ وَالْحَسَدِ ، وَالْكَذِبِ وَالْغَضَبِ ، وَاحْتِقَارِ النَّاسِ ، وَالْأَنَفَةِ مِنْ قَبُولِ النَّصِيحَةِ . وَيَكُونُ الْمُتَكَبِّرُ مُقْفَلَ الْقَلْبِ لَا يَدْخُلُهُ شَيْءٌ مِنَ الْهِدَايَةِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى : (كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) . وَكَانَ إِبْلِيسُ يَعْبُدُ اللهَ مَعَ الْمَلَائِكَةِ آلَافَ السِّنِينَ ، فَلَمَّا تَكَبَّرَ لَعَنَهُ اللهُ ، وَطَرَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) . وَقَالَ : (قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ) .

(٦) وَمِنْ عَلاَمَاتِ الْمُتَكَبِّرِ: أَنْ يَتَرَفَّعَ فِي الْمَجَالِسِ، وَ يَتَقَدَّمَ عَلَى الْأَقْرَانِ، وَأَنْ يَمْدَحَ نَفْسَهُ، وَيَذُمَّ غَيْرَهُ، وَأَنْ يَسْتَنْكِفَ مِنْ قَبُولِ الْحَقِّ. كَمَا فِي الْحَدِيثِ: اَلْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ. أَيْ: رَدُّهُ وَعَدَمُ قَبُولِهِ. وَغَمْطُ النَّاسِ، أَيِ احْتِقَارُهُمْ. وَأَنْ يُصِرَّ عَلَى خَطِئِهِ، لِأَنَّهُ لاَيُحِبُّ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ أَحَدٌ. وَأَنْ يَسْتَعْمِلَ الشِّدَّةَ وَالْغِلْظَةَ إِذَا نَصَحَ غَيْرَهُ. وَأَنْ يُصَعِّرَ خَدَّهُ، وَيُعَبِّسَ وَجْهَهُ، وَيَخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ، وَيَدُقَّ الْأَرْضَ بِقَدَمَيْهِ، وَيَكْرَهَ أَنْ يَتَقَدَّمَ عَلَيْهِ أَحَدٌ فِي الْمَشْيِ، وَيُحِبَّ أَنْ يَمْشِيَ مَعَهُ غَيْرُهُ مِنْ خَلْفِهِ، وَأَنْ يَقُومَ لَهُ النَّاسُ فِي الْمَجْلِسِ، وَلاَيُرِيدُ أَنْ يَبْدَأَ غَيْرَهُ بِالسَّلاَمِ، وَإِذَا سَلَّمَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ لاَيَرُدُّ السَّلاَمَ.

وَمِنْ عَلاَمَاتِ الْمُتَكَبِّرِ أَيْضًا: أَنْ يَنْظُرَ إِلَى غَيْرِهِ شَزْرًا، وَأَنْ يُحِبَّ أَنْ يُزَارَ وَلاَيَزُورَ، وَأَنْ يَتَرَفَّعَ عَنْ مُجَالَسَةِ الضُّعَفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَعَنْ مُؤَاكَلَتِهِمْ وَإِجَابَتِهِمْ إِذَا دَعَوْهُ، وَأَنْ يَتَبَاعَدَ عَنْ عِيَادَةِ الْمَرْضَى وَمُلاَطَفَتِهِمْ، وَأَنْ لاَيُبَاشِرَ أَعْمَالَهُ بِنَفْسِهِ، بَلْ يَسْتَخْدِمُ غَيْرَهُ، وَيَسْتَنْكِفَ عَنْ حَمْلِ مَتَاعِهِ بِيَدِهِ، وَأَنْ لاَ يَلْبَسَ إِلاَّ الثِّيَابَ الْفَاخِرَةَ، بِقَصْدِ الْكِبْرِ وَالتَّرَفُّعِ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ.

١٨ - قِصَصُ المُتَوَاضِعِينَ وَالمُتَكَبِّرِينَ

(١) أَكَلَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِشِمَالِهِ فَقَالَ لَهُ كُلْ بِيَمِينِكَ قَالَ لَا أَسْتَطِيعُ قَالَ لَا اسْتَطَعْتَ، مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ قَالَ فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ.

(٢) أَعْطَى عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ غُلَامَهُ دَرَاهِمَ لِيَشْتَرِيَ بِهَا ثَوْبَيْنِ مُتَفَاوِتَيِ الْقِيمَةِ فَلَمَّا أَحْضَرَهُمَا لَهُ أَعْطَاهُ أَرَقَّهُمَا نَسِيجًا وَأَغْلَاهُمَا قِيمَةً وَحَفِظَ لِنَفْسِهِ الْآخَرَ وَقَالَ لَهُ أَنْتَ أَحَقُّ مِنِّي بِأَجْوَدِهِمَا لِأَنَّكَ شَابٌّ وَتَمِيلُ نَفْسُكَ لِلتَّجَمُّلِ. أَمَّا أَنَا فَقَدْ كَبِرْتُ وَيَكْفِينِي هٰذَا.

(٣) وَلَمَّا اسْتُدْعِيَ سَيِّدُنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إِلَى الشَّامِ لِيُمْضِيَ صُلْحًا فِي بَعْضِ بِلَادِهَا كَمَا اشْتَرَطَ أَهْلُهَا. كَانَ يَتَنَاوَبُ فِي الرُّكُوبِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غُلَامِهِ فَلَمَّا قَرُبَا مِنَ الْمَدِينَةِ كَانَ الدَّوْرُ فِي الرُّكُوبِ لِلْغُلَامِ فَانْتَهَى سَيِّدُنَا عُمَرُ إِلَى مُعَسْكَرِهِ وَهُوَ يَمْشِي وَعَبْدُهُ رَاكِبٌ.

(٤) مَرَّ سَيِّدُنَا حُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بِمَسَاكِينَ، وَهُمْ يَأْكُلُونَ كِسَرًا لَهُمْ عَلَى كِسَاءٍ، فَقَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ الْغَدَاءَ،

فَنَزَلَ وَقَالَ: (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) فَأَكَلَ مَعَهُمْ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: قَدْ أَجَبْتُكُمْ فَأَجِيبُونِي، فَانْطَلَقُوا مَعَهُ، فَلَمَّا أَتَوُا الْمَنْزِلَ قَالَ لِجَارِيَتِهِ: أَخْرِجِي مَا كُنْتِ تَدَّخِرِينَ.

(٥) وَرُوِيَ أَنَّ سَيِّدَنَا عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَتَاهُ لَيْلَةً ضَيْفٌ، وَكَانَ يَكْتُبُ، فَكَادَ السِّرَاجُ يَطْفَأُ، فَقَالَ الضَّيْفُ: أَقُومُ إِلَى الْمِصْبَاحِ فَأُصْلِحُهُ، فَقَالَ: لَيْسَ مِنْ كَرَمِ الرَّجُلِ أَنْ يَسْتَخْدِمَ ضَيْفَهُ، قَالَ: أَفَأُنَبِّهُ الْغُلَامَ؟ فَقَالَ: هِيَ أَوَّلُ نَوْمَةٍ نَامَهَا، فَقَامَ وَأَخَذَ الْبَطَّةَ، وَمَلَأَ الْمِصْبَاحَ زَيْتًا، فَقَالَ الضَّيْفُ: قُمْتَ أَنْتَ بِنَفْسِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! قَالَ: ذَهَبْتُ وَأَنَا عُمَرُ، وَرَجَعْتُ وَأَنَا عُمَرُ، مَا نَقَصَ مِنِّي شَيْءٌ، وَخَيْرُ النَّاسِ مَنْ كَانَ عِنْدَ اللهِ مُتَوَاضِعًا.

(٦) وَحُكِيَ أَنَّ مُطَرِّفَ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ رَحِمَهُ اللهُ: نَظَرَ إِلَى الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ يَسْحَبُهَا، وَيَمْشِي الْخُيَلَاءَ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، مَا هٰذِهِ الْمِشْيَةُ الَّتِي يُبْغِضُهَا اللهُ وَرَسُولُهُ؟ فَقَالَ الْمُهَلَّبُ: أَمَا تَعْرِفُنِي؟ فَقَالَ: بَلَى أَعْرِفُكَ، أَوَّلُكَ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ، وَآخِرُكَ جِيفَةٌ قَذِرَةٌ، وَحَشْوُكَ فِيمَا

بَيْنَ ذَلِكَ بَوْلٌ وَعَذِرَةٌ ، فَتَرَكَ الْمُهَلَّبُ مِشْيَتَهُ تِلْكَ .

(٧) وَعَنْ عُمَرَ بْنِ شَبَّةَ قَالَ : كُنْتُ بِمَكَّةَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، فَرَأَيْتُ رَجُلاً رَاكِباً بَغْلَةً، وَبَيْنَ يَدَيْهِ غِلْمَانٌ، وَإِذَا هُمْ يُعَنِّفُونَ النَّاسَ، قَالَ : ثُمَّ عُدْتُ بَعْدَ حِينٍ، فَدَخَلْتُ عَلَى الْجِسْرِ، فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ حَافٍ، حَاسِرٍ طَوِيلِ الشَّعْرِ، قَالَ : فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَأَتَأَمَّلُهُ، فَقَالَ لِي : مَالَكَ تَنْظُرُ إِلَيَّ؟ فَقُلْتُ لَهُ : شَبَّهْتُكَ بِرَجُلٍ رَأَيْتُهُ بِمَكَّةَ، وَوَصَفْتُ لَهُ الصِّفَةَ، فَقَالَ لِي : أَنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ، فَقُلْتُ : مَا فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فَقَالَ : إِنِّي تَرَفَّعْتُ فِي مَوْضِعٍ يَتَوَاضَعُ فِيهِ النَّاسُ، فَوَضَعَنِي اللهُ حَيْثُ يَتَرَفَّعُ النَّاسُ .

(٨) كَانَ الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ مِنْ كِبَارِ الظَّلَمَةِ الْمُتَكَبِّرِينَ، السَّفَّاكِينَ لِلدِّمَاءِ وَأَخْبَارُهُ الشَّنِيعَةُ مَذْكُورَةٌ فِي كُتُبِ التَّارِيخِ. وَذَاتَ يَوْمٍ رَأَى خُنْفَسَاءَ تَدِبُّ إِلَى مُصَلاَّهُ، فَطَرَدَهَا فَعَادَتْ، ثُمَّ طَرَدَهَا فَعَادَتْ، فَأَخَذَهَا بِيَدِهِ، وَحَذَفَ بِهَا، فَقَرَصَتْهُ قَرْصًا وَرِمَتْ يَدُهُ مِنْهُ حَتَّى هَلَكَ . وَهَكَذَا أَهَانَهُ اللهُ فَقَتَلَهُ بِأَهْوَنِ مَخْلُوقَاتِهِ، كَمَا قَتَلَ نُمْرُوذَ بْنَ كَنْعَانَ بِبَعُوضَةٍ دَخَلَتْ فِي أَنْفِهِ،

فكانت سبب هلاكه، وكم تمرّد وتجبّر حتى ادّعى الألوهية، وآذى سيدنا إبراهيم عليه السلام. وأراد أن يحرقه بالنار، فسلّمه الله منها، كما قال تعالى: (قُلنا يا نارُ كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم).

(٩) وكذلك أهلك الله فرعون: بأن أغرقه في نهر النيل خاسئًا ذليلاً، بعد أن طغى وبغى وقال لقومه: (أنا ربكم الأعلى) وآذى سيدنا موسى عليه السلام، وقتل وسجن كثيرًا من الناس، وعذبهم أشد العذاب. وكذلك قارون لما تكبّر: خسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، إلى غير ذلك، كما في أخبار قوم نوح، وعاد وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، فحذبهم الله بكبرهم وإفسادهم في الأرض، بعضهم بالغرق، وبعضهم بريح صرصر عاتية، أو بالصيحة، أو بحجارة ونار ترميهم من السماء، أو بالزلزلة الشديدة. كما قال تعالى: (فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون).

---

١٩ ـ الإِخْلاَصُ وَالرِّيَاءُ

(١) اَلْإِخْلَاصُ هُوَ : أَسَاسُ الْأَعْمَالِ وَرُوحُهَا، وَلاَ تَصِحُّ وَلَا تُقْبَلُ عِنْدَ اللهِ بِدُونِهِ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ : (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) وَقَالَ تَعَالَىٰ : (أَلَا لِلّٰهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) وَقَالَ تَعَالَىٰ : (لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ) وَمَعْنَى الْإِخْلَاصِ : أَنْ تَعْمَلَ لِلّٰهِ وَحْدَهُ، لِيَرْضَىٰ عَنْكَ وَيُثِيبَكَ . وَأَنْ يَكُونَ عَمَلُكَ خَالِصًا عَنْ شَوَائِبِ النِّيَّاتِ الْأُخْرَىٰ كَطَلَبِ شُهْرَةٍ أَوْ مَالٍ أَوْ جَاهٍ .

(٢) فَعَلَيْكَ بِالْإِخْلَاصِ فِي اعْتِقَادِكَ وَقَوْلِكَ، لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، اَلْفَائِزِينَ بِرِضَا رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَاحْذَرْ كُلَّ الْحَذَرِ مِنَ الرِّيَاءِ فِي ذٰلِكَ، حَتّٰى تَسْلَمَ مِنَ الشِّرْكِ وَالْإِثْمِ، وَيَسْلَمَ عَمَلُكَ مِنَ الرَّدِّ وَالْبُطْلَانِ . وَفِي الْحَدِيثِ : أَدْنَى الرِّيَاءِ شِرْكٌ . وَسُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، أَيُّ ذٰلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا : فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَوَرَدَ فِي الْحَدِيثِ أَيْضًا : إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ : فَمَنْ كَانَتْ

هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ: فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا: فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ.

(٣) وَاعْلَمْ أَنَّ الإِخْلَاصَ وَاجِبٌ، وَالْمُخْلِصَ عِنْدَ اللهِ مَحْبُوبٌ وَالرِّيَاءَ حَرَامٌ، وَهُوَ مِنَ الذُّنُوبِ الْكَبَائِرِ، وَالْمُرَائِي عِنْدَ اللهِ مَكْرُوهٌ مَمْقُوتٌ، وَقَدْ ذَمَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُرَائِيْنَ بِقَوْلِهِ: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّيْنَ الَّذِيْنَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُوْنَ الَّذِيْنَ هُمْ يُرَاءُوْنَ وَيَمْنَعُوْنَ الْمَاعُوْنَ) وَفِي آيَةٍ: (إِنَّ الْمُنَافِقِيْنَ يُخَادِعُوْنَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُوْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُوْنَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا) وَفِي آيَةٍ: (وَالَّذِيْنَ يُنْفِقُوْنَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُوْنَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ. وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيْنًا فَسَاءَ قَرِيْنًا).

وَمَدَحَ الْمُخْلِصِيْنَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيْدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوْرًا).

وَعَلَى أَسَاسِ الإِخْلَاصِ وَعَدَ اللهُ التَّائِبِيْنَ مِنَ الْمُنَافِقِيْنَ بِالْقَبُوْلِ وَالْأَجْرِ الْعَظِيْمِ، مَعَ الْمُؤْمِنِيْنَ الْعَامِلِيْنَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (إِلَّا الَّذِيْنَ تَابُوْا وَأَصْلَحُوْا وَاعْتَصَمُوْا بِاللهِ وَأَخْلَصُوْا دِيْنَهُمْ لِلّٰهِ

فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ. وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا).

(٤) وَاعْلَمْ أَنَّ الْعَامِلَ الَّذِى قَصْدُهُ مُجَرَّدُ الرِّيَاءِ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِلْهَلَاكِ وَالْعَذَابِ الشَّدِيدِ. وَفِى الْحَدِيثِ: أَوَّلُ مَنْ يُسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْعِلْمَ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: مَا صَنَعْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ عَالِمٌ، أَلَا فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: لَقَدْ أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ، فَمَاذَا صَنَعْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ كُنْتُ أَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ. فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ: أَلَا فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. وَرَجُلٌ قُتِلَ فِى سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: مَاذَا صَنَعْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ، فَقَاتَلْتُ، حَتَّى قُتِلْتُ، فَيَقُولُ اللهُ كَذَبْتَ، وَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ شُجَاعٌ، أَلَا فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ: أُولَئِكَ أَوَّلُ خَلْقٍ تُسَعَّرُ نَارُ جَهَنَّمَ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَفِى الْحَدِيثِ الْآخَرِ: مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّ

وَجَلَّ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا؛ لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ يَعْنِي رِيحَهَا.

(٥) وَأَمَّا الَّذِي لَهُ بَاعِثَانِ عَلَى الْعَمَلِ؛ قَصْدُ التَّقَرُّبِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَقَصْدُ نَيْلِ حَظٍّ مِنَ الْحُظُوظِ النَّفْسِيَّةِ، فَأَمْرُهُ عَلَى خَطَرٍ أَيْضًا: فَإِنْ كَانَ الْبَاعِثَانِ عَلَى الْعَمَلِ مُتَسَاوِيَيْنِ: فَقَدْ ضَاعَ الْأَجْرُ، وَأَصْبَحَ الْعَامِلُ لَا لَهُ ثَوَابٌ، وَلَا عَلَيْهِ عِقَابٌ، وَإِنْ كَانَ الْبَاعِثُ الدِّينِيُّ أَقْوَى: فَإِنَّ الثَّوَابَ لَا يَحْبَطُ، وَلَكِنَّهُ يَنْقُصُ بِقَدْرِ الْبَاعِثِ الدُّنْيَوِيِّ، وَأَمَّا إِذَا رَجَحَ الْبَاعِثُ الدُّنْيَوِيُّ؛ بِحَيْثُ إِذَا لَمْ يُوجَدْ هَذَا الْبَاعِثُ: تَرَكَ الْعَامِلُ عَمَلَهُ؛ فَإِنَّ فِيهِ حُبُوطَ الْأَجْرِ، وَإِثْمَ الْعَامِلِ، وَلَكِنَّ عِقَابَهُ أَخَفُّ مِنْ عِقَابِ الَّذِي بَاعِثُهُ الرِّيَاءُ فَقَطْ.

(٦) وَاعْلَمْ: أَنَّ لِلْمُرَائِي ثَلَاثَ عَلَامَاتٍ: كَمَا قَالَ سَيِّدُنَا عَلِيٌّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ: يَكْسَلُ إِذَا كَانَ وَحْدَهُ، وَيَنْشَطُ إِذَا كَانَ فِي النَّاسِ، وَيَزِيدُ فِي الْعَمَلِ إِذَا أُثْنِيَ عَلَيْهِ، وَيَنْقُصُ إِذَا ذُمَّ. وَأَمَّا إِذَا عَمِلْتَ عَمَلًا لِلَّهِ، ثُمَّ مَدَحَكَ النَّاسُ عَلَيْهِ بِدُونِ قَصْدٍ مِنْكَ لِلْمَدْحِ؛ فَلَا بَأْسَ بِذَلِكَ، وَهَذَا مِنْ عَلَامَةِ قَبُولِ عَمَلِكَ. وَفِي الْحَدِيثِ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أَرَأَيْتَ

الرَّجُلَ يَعْمَلُ العَمَلَ مِنَ الخَيْرِ، وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى المُؤْمِنِ. أَيِ المُشَارُ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ).

(٧) وَأَمْثِلَةُ الرِّيَاءِ الَّذِي يَشُوبُهُ قَصْدُ التَّقَرُّبِ كَثِيرَةٌ، وَمِنْهَا: أَنْ يَتَعَلَّمَ العِلْمَ لِيَتَقَرَّبَ إِلَى اللهِ بِعِلْمِهِ، وَلِيَنَالَ الشُّهْرَةَ وَالجَاهَ عِنْدَ النَّاسِ، أَوْ لِيَكْتَسِبَ بِهِ المَالَ. أَوْ يَكْتُبَ مُصْحَفًا لِيَحْسُنَ خَطُّهُ. أَوْ يُصَلِّيَ لِيَدْفَعَ عَنْهُ النُّعَاسَ، أَوْ لِيُرَيِّضَ بَدَنَهُ بِحَرَكَاتِ الصَّلَاةِ، أَوْ يَصُومَ لِيَنْتَفِعَ بِالحِمْيَةِ وَالصِّحَّةِ، أَوْ يَحُجَّ لِيَتَنَعَّمَ بِمُشَاهَدَةِ البِلَادِ، وَيَصِحَّ مِزَاجُهُ بِالسَّفَرِ. أَوْ يَتَوَضَّأَ لِيَتَنَظَّفَ، أَوْ يَتَبَرَّدَ، أَوْ يَغْتَسِلَ الغُسْلَ المَسْنُونَ لِتَطِيبَ رَائِحَتُهُ، أَوْ يَتَصَدَّقَ لِيُقَالَ: إِنَّهُ سَخِيٌّ، أَوْ لِيَقْطَعَ إِلْحَاحَ السَّائِلِ، أَوْ يَعُودَ مَرِيضًا لِيُعَادَ إِذَا مَرِضَ، أَوْ يَقْرَأَ القُرْآنَ وَيَذْكُرَ اللهَ. لِيُقَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ وَذَاكِرٌ فَيَكْتَسِبَ مَنْصِبًا أَوْ مَالًا أَوْ جَاهًا أَوْ يُصَلِّيَ الجُمُعَةَ وَالجَمَاعَاتِ وَالتَّرَاوِيحَ، وَيَبَرَّ وَالِدَيْهِ، لَا رَغْبَةً فِي الثَّوَابِ فَقَطْ، وَلَكِنْ خَوْفًا مِنَ النَّاسِ أَيْضًا.

(٨) وَاعْلَمْ: أَنَّ مَوْضِعَ الإِخْلَاصِ وَالرِّيَاءِ هُوَ القَلْبُ، وَهُوَ مَحَطُّ نَظَرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، كَمَا فِي الحَدِيثِ: إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ

وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلٰكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ : أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ. فَاجْتَهِدْ فِي تَنْظِيفِ قَلْبِكَ، وَاجْعَلْ هَمَّكَ مَقْصُورًا عَلَى رَبِّكَ، لِيُثِيبَكَ عَلَى عَمَلِكَ، وَأَمَّا النَّاسُ فَإِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، فَكَيْفَ يَمْلِكُونَ لِغَيْرِهِمْ هٰذَا فِي الدُّنْيَا، فَكَيْفَ فِي الْآخِرَةِ! قَالَ اللهُ تَعَالَى: (يَوْمَ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا) وَقَالَ تَعَالَى: (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) فَلَا يُرَائِيهِمْ بِأَعْمَالِهِ إِلَّا الْجَاهِلُ الْخَاسِرُ، الَّذِي غَرَّهُ الشَّيْطَانُ بِأَطْمَاعِهِ الْكَاذِبَةِ، وَفِي الْحَدِيثِ: إِذَا جَمَعَ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ: نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ لِلّٰهِ أَحَدًا: فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِهِ، فَإِنَّ اللهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ.

٣٠ - خَيبَةُ الْمُرَائِين

(١) رُوِىَ عَنْ رَسُوْلِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ: صُمْتُ الدَّهْرَ يَا رَسُوْلَ اللهِ، فَقَالَ لَهُ. مَا صُمْتَ وَلاَ أَفْطَرْتَ. قَالَ الْعُلَمَاءُ: إِنَّمَا قَالَ ذٰلِكَ: لِأَنَّهُ أَظْهَرَ صَوْمَهُ.

(٢) رُوِىَ أَنَّ سَيِّدَنَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ: رَأَى رَجُلاً يُطَأْطِئُ رَقَبَتَهُ، فَقَالَ: يَا صَاحِبَ الرَّقَبَةِ: إِرْفَعْ رَقَبَتَكَ، لَيْسَ الْخُشُوْعُ فِى الرِّقَابِ، إِنَّمَا الْخُشُوْعُ فِى الْقُلُوْبِ.

(٣) وَعَنِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلاً يَقُوْلُ: قَرَأْتُ الْبَارِحَةَ الْبَقَرَةَ، فَقَالَ: ذٰلِكَ حَظُّهُ مِنْهَا. أَىْ: لَيْسَ لَهُ ثَوَابٌ، لِأَنَّهُ رَاءَى بِعَمَلِهِ.

(٤) وَنَظَرَ أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِىُّ رَضِىَ اللهُ عَنْهُ: رَجُلاً فِى الْمَسْجِدِ يَبْكِى فِى سُجُوْدِهِ، فَقَالَ: أَنْتَ أَنْتَ لَوْ كَانَ هٰذَا فِى بَيْتِكَ.

(٥) وَحُكِىَ: أَنَّ رَجُلاً أَضَافَ سُفْيَانَ الثَّوْرِىَّ وَأَصْحَابَهُ، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: هَاتُوا الطَّبَقَ، لاَ الَّذِى أَتَيْتُ بِهِ فِى الْحَجَّةِ الْأُوْلَى، بَلْ فِى الثَّانِيَةِ، فَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِىُّ رَحِمَهُ اللهُ: هُوَ مِسْكِيْنٌ، أَفْسَدَ بِهٰذَا حَجَّتَيْهِ.

(٦) وَصَلَّى رَجُلٌ مُرَاءٍ، فَقِيلَ لَهُ: مَا أَحْسَنَ صَلَاتَكَ! فَقَالَ: مَعَ ذٰلِكَ إِنِّي صَائِمٌ.

(٧) وَقِيلَ لِبَعْضِ الْمُرَائِينَ: كَمْ لَكَ مُنْذُ نَزَلْتَ الْعِرَاقَ؟ قَالَ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً، وَأَصُومُ مُنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً. وَقَالَ مَحْمُودٌ الْوَرَّاقُ:

أَظْهَرُوا لِلنَّاسِ نُسُكًا وَعَلَى الدِّينَارِ دَارُوا
وَلَهُ صَلَّوْا وَصَامُوا وَلَهُ حَجُّوا وَزَارُوا
لَوْ يُرَى فَوْقَ الثُّرَيَّا وَلَهُمْ رِيشٌ لَطَارُوا

---

٢١ - اَلْحِقْدُ وَالْحَسَدُ

(١) اِعْلَمْ: أَنَّ الْحِقْدَ نَتِيجَةُ الْغَضَبِ، فَإِذَا غَضِبَ الْإِنْسَانُ عَلَى أَحَدٍ، وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْهُ: رَجَعَ الْغَضَبُ إِلَى الْبَاطِنِ، فَصَارَ حِقْدًا. وَلَا يَزَالُ الْحَاقِدُ يَنْتَظِرُ فُرْصَةً، حَتَّى يَنْتَقِمَ مِنَ الْمَحْقُودِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنَّ ٱلْعَدُوَّ وَإِنْ أَبْدَى مُسَالَمَةً ❊ إِذَا رَأَى مِنْكَ يَوْمًا غِرَّةً وَثَبَا

وَٱلْحِقْدُ حَرَامٌ وَمَذْمُومٌ جِدًّا مِثْلَ ٱلْحَسَدِ، وَمَعْنَاهُ: تَمَنِّي زَوَالِ النِّعْمَةِ عَنِ ٱلْمَحْسُودِ قَالَ اللهُ تَعَالَى: (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ) وَقَالَ تَعَالَى: (وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: اَلْغِلُّ وَالْحَسَدُ يَأْكُلَانِ ٱلْحَسَنَاتِ، كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ. وَمَعْنَى الْغِلِّ: اَلْحِقْدُ. وَقَالَ أَيْضًا: اَلْمُؤْمِنُ لَيْسَ بِحَقُودٍ. وَقَالَ أَيْضًا: لَيْسَ مِنِّي ذُو حَسَدٍ وَلَا نَمِيمَةٍ وَلَا كَهَانَةٍ، وَلَا أَنَا مِنْهُ. وَأَمَّا الْغِبْطَةُ وَهِيَ: أَنْ يَتَمَنَّى مِثْلَ نِعْمَةِ الْمَغْبُوطِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَمَنَّى زَوَالَهَا عَنْهُ، فَهِيَ مَحْمُودَةٌ، لِأَنَّهَا تُؤَدِّي إِلَى الْمُنَافَسَةِ، وَهِيَ فِي أُمُورِ الْخَيْرِ مَأْمُورٌ بِهَا. قَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) وَفِي الْحَدِيثِ: اَلْمُؤْمِنُ يَغْبِطُ، وَالْمُنَافِقُ يَحْسُدُ. وَفِيهِ أَيْضًا: دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: اَلْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ، وَهِيَ الْحَالِقَةُ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلٰكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ: لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ.

(٢) وَالحِقدُ وَالحَسَدُ يُسَبِّبَانِ أَتعَابًا قَلبِيَّةً، وَأَضرَارًا بَدَنِيَّةً.
قَالَ سَيِّدُنَا عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: صِحَّةُ الجَسَدِ، مِن قِلَّةِ الحَسَدِ.
وَقَالَ الأَصمَعِيُّ: قُلتُ لِأَعرَابِيٍّ وَقَد بَلَغَ عُمرُهُ مِائَةً وَعِشرِينَ
سَنَةً مَا أَطوَلَ عُمرَكَ! قَالَ: تَرَكتُ الحَسَدَ فَبَقِيتُ. وَلَيسَ أَروَحَ
لِلإِنسَانِ، وَلَا أَبعَدَ لِهُمُومِهِ: مِن أَن يَعِيشَ سَلِيمَ الصَّدرِ، لَا
يَحسُدُ أَحَدًا، وَلَا يَحقِدُ عَلَى أَحَدٍ. وَعَلَى هٰذَا كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ
عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ. وَفِي الحَدِيثِ: لَا يُبَلِّغنِي أَحَدٌ مِن أَصحَابِي
عَن أَحَدٍ شَيئًا فَإِنِّي أُحِبُّ أَن أَخرُجَ إِلَيكُم وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدرِ. وَ
مِن دُعَائِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: اَللّٰهُمَّ مَا أَصبَحَ بِي مِن نِعمَةٍ
أَو بِأَحَدٍ مِن خَلقِكَ فَمِنكَ وَحدَكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ، فَلَكَ الحَمدُ
وَلَكَ الشُّكرُ. وَفِي الحَدِيثِ: سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ:
أَيُّ النَّاسِ أَفضَلُ؟ قَالَ: كُلُّ مَخمُومِ القَلبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ.
قِيلَ: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعرِفُهُ، فَمَا مَخمُومُ القَلبِ؟ قَالَ: هُوَ التَّقِيُّ
النَّقِيُّ، لَا إِثمَ فِيهِ وَلَا بَغيَ، وَلَا غِلَّ وَلَا حَسَدَ. وَقَد وَصَفَ اللهُ
المُسلِمِينَ حَقًّا بِقَولِهِ تَعَالَى: (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعدِهِم يَقُولُونَ
رَبَّنَا اغفِر لَنَا وَلِإِخوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجعَل فِي
قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا. رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ). وَقَالَ الشَّاعِرُ:

يَاطَالِبَ الْعَيْشِ فِي أَمْنٍ وَفِي دَعَةٍ
مَحْضًا بِلَا كَدَرٍ صَفْوًا بِلَا رَنَقِ

خَلِّصْ فُؤَادَكَ مِنْ غِلٍّ وَمِنْ حَسَدٍ
فَالْغِلُّ فِي الْقَلْبِ مِثْلُ الْغُلِّ فِي الْعُنُقِ

(٣) وَاعْلَمْ أَنَّ الْآثَارَ السَّيِّئَةَ عَنِ الْحِقْدِ وَالْحَسَدِ: لَا تَلْزَمُ الشَّخْصَ وَحْدَهُ، بَلْ تَتَعَدَّى إِلَى الْمُجْتَمَعِ، فَتُسَبِّبُ أَضْرَارًا بَلِيغَةً، وَتُوَرِّثُ نَارَ الْفِتَنِ وَالْخُصُومَاتِ. فَيَحْصُلُ التَّقَاطُعُ بَيْنَ الْإِخْوَةِ، وَبَيْنَ أَفْرَادِ الْأُسْرَةِ، وَبَيْنَ قَبِيلَةٍ وَقَبِيلَةٍ أُخْرَى.

وَفِي ذَمِّ الْمُقَاطَعَةِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: لَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَقَاطَعُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا. وَلَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: فَمَنْ هَجَرَ فَوْقَ ثَلَاثٍ فَمَاتَ دَخَلَ النَّارَ. وَقَالَ أَيْضًا: تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ، وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هٰذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هٰذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا. وَقَالَ أَيْضًا: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَطَّلِعُ عَلَى عِبَادِهِ

لَيْلَةَ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ، فَيَغْفِرُ لِلْمُسْتَغْفِرِينَ، وَيَرْحَمُ لِلْمُسْتَرْحِمِينَ، وَيُؤَخِّرُ أَهْلَ الْحِقْدِ كَمَا هُمْ.

(٤) وَأَسْبَابُ الْحَسَدِ كَثِيرَةٌ:

فَمِنْهَا الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ، فَلَا يُرِيدُ أَنْ يَتَّصِفَ عَدُوُّهُ بِفَضِيلَةٍ فَلِذَلِكَ يَحْسُدُهُ عَلَيْهَا.

وَمِنْهَا التَّرَفُّعُ وَالتَّكَبُّرُ، فَلَا يَرْضَى أَنْ يَظْهَرَ أَحَدٌ بِمَنْقَبَةٍ، لِئَلَّا يَتَكَبَّرَ بِهَا عَلَيْهِ. وَلِذَلِكَ يَتَمَنَّى زَوَالَهَا عَنْهُ.

وَمِنْهَا خَوْفُ عَدَمِ الْحُصُولِ عَلَى الْمَقَاصِدِ، وَهَذَا يَكُونُ غَالِبًا بَيْنَ الْأَقَارِبِ وَالزُّمَلَاءِ: فَيَتَحَاسَدُ الْإِخْوَةُ عَلَى حُصُولِ الْمَنْزِلَةِ فِي قُلُوبِ الْوَالِدَيْنِ، وَيَتَحَاسَدُ التَّلَامِيذُ عَلَى نَيْلِ الرُّتْبَةِ لَدَى الْأُسْتَاذِ، وَيَتَحَاسَدُ التُّجَّارُ عَلَى كَثْرَةِ الزَّبَائِنِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. كَمَا قِيلَ: عَدُوُّ الْمَرْءِ مَنْ يَعْمَلُ مِثْلَ عَمَلِهِ.

وَمِنْهَا خُبْثُ النَّفْسِ، وَدَنَاءَةُ الطَّبْعِ، وَهَذَا أَعَمُّ الْأَسْبَابِ وَأَخْبَثُهَا. فَلَا يُرِيدُ لِأَحَدٍ خَيْرًا، وَيَشُقُّ عَلَيْهِ ظُهُورُ نِعَمِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ: فَيَحْزَنُ إِذَا رَأَى النَّاسَ فِي صِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ، وَاطْمِئْنَانٍ وَأَمَانٍ، وَيَفْرَحُ إِذَا نَزَلَتْ بِهِمُ الْمَصَائِبُ: بِأَنِ اخْتَلَّتْ أُمُورُهُمْ،

وَغلَتْ أَسْعارُهُمْ، وَفشَتْ بَيْنَهُمُ الأَمْرَاضُ وَالخُصُومَاتُ. فَهذا عَدُوُّ نِعَمِ اللهِ، وَحَسَدُهُ ثَابِتٌ، وَعِلاَجُهُ صَعْبٌ جِدًّا، لِأَنَّهُ لاَ يُرْضِيهِ إِلاَّ أَنْ تَزُولَ نِعَمُ اللهِ عَنْ عِبَادِهِ.

(٥) وَلِلّهِ دَرُّ الشَّاعِرِ حَيْثُ قَالَ:

كُلُّ العَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِمَاتَتُهَا
إِلاَّ عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدِ
فَإِنَّ فِي القَلْبِ مِنْهَا عُقْدَةً عُقِدَتْ
وَلَيْسَ يَفْتَحُهَا رَاقٍ إِلَى الأَبَدِ
إِلاَّ الإِلٰهَ فَإِنْ يَرْحَمْ يُحَلِّلُهَا
وَإِنْ أَبَاهُ فَلاَ تَرْجُوهُ مِنْ أَحَدِ

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُعَادُونَ القَائِمِينَ بِإِصْلاَحِ البِلاَدِ، وَمَنْفَعَةِ الأُمَّةِ، فَيُقَاوِمُونَ أَعْمَالَهُمْ، وَيُثَبِّطُونَ مَشَارِيعَهُمْ، حَسَدًا مِنْهُمْ، وَخُبْثَ طَوِيَّةٍ، فَإِيَّاكَ أَنْ تُعَاشِرَهُمْ، وَابْتَعِدْ مِنْهُمُ ابْتِعَادَ الصَّحِيحِ مِنَ الأَجْرَبِ، وَأَيِّدِ الرِّجَالَ المُصْلِحِينَ، بِمَا لَدَيْكَ مِنْ قُوَّةٍ.

(٦) وَمِنْ لَوَازِمِ الحِقْدِ: سُوءُ الظَّنِّ، وَتَتَبُّعُ العَوْرَاتِ، وَمَحَبَّةُ

إِشَاعَةِ الْفَاحِشَةِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: صَعِدَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْمِنْبَرَ، فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يُفْضِ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ: لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ: يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ.

وَنَظَرَ ابْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلَى الْكَعْبَةِ فَقَالَ: مَا أَعْظَمَكِ: وَمَا أَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللهِ مِنْكِ. وَمِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ: أَنَّهُ يُحِبُّ سَتْرَ الْعُيُوبِ، وَسَمَّى نَفْسَهُ السَّتَّارَ. وَفِي الْحَدِيثِ: لَا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

(٧) فَيَجِبُ عَلَيْكَ: أَنْ تَحْتَرِزَ عَنِ الْحِقْدِ وَالْحَسَدِ، غَايَةَ جُهْدِكَ. فَإِذَا وَقَعْتَ فِيهِمَا: فَأَسْرِعْ بِالتَّوْبَةِ، وَدَاوِ قَلْبَكَ الْمَرِيضَ بِهَذِهِ الْأَدْوِيَةِ النَّاجِحَةِ:

(أَوَّلاً) أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْحَسَدَ يَضُرُّكَ فِي دِينِكَ وَدُنْيَاكَ، فَأَمَّا ضَرَرُهُ فِي الدُّنْيَا: فَإِنَّكَ لَا تَزَالُ بِسَبَبِ الْحَسَدِ فِي هَمٍّ وَغَمٍّ، وَكَمَدٍ وَحُزْنٍ: تُرِيدُ أَنْ تُؤْذِيَ مَحْسُودَكَ بِحَسَدِكَ. وَلَكِنْ فِي الْحَقِيقَةِ آذَيْتَ نَفْسَكَ، فَنَزَلَ عَلَيْكَ مَا تَشْتَهِيهِ مِنَ الْعَذَابِ لِأَعْدَائِكَ، وَنِعَمُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ثَابِتَةٌ مَا ذَهَبَتْ عَنْ مَحْسُودِكَ، وَهُوَ يَقُولُ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنْ يَحْسُدُونِي فَإِنِّي غَيْرُ لَائِمِهِمْ
قَبْلِي مِنَ النَّاسِ أَهْلُ الْفَضْلِ قَدْ حُسِدُوا

فَدَامَ لِي وَلَهُمْ مَا بِي وَمَا بِهِمْ
وَمَاتَ أَكْثَرُنَا غَيْظًا بِمَا يَجِدُ

وَأَمَّا ضَرَرُهُ فِي الدِّينِ: فَإِنَّكَ بِحَسَدِكَ سَخِطْتَ قَضَاءَ اللهِ، وَكَرِهْتَ الْخَيْرَ لِعِبَادِهِ، وَبِذَلِكَ جَنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ جِنَايَةً عَظِيمَةً، وَارْتَكَبْتَ ذَنْبًا مِنَ الْكَبَائِرِ الذُّنُوبِ، وَاسْتَحْقَقْتَ بِذَلِكَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فِي الْآخِرَةِ. قَالَ الشَّاعِرُ:

أَيَا حَاسِدًا لِي عَلَى نِعْمَتِي
أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأْتَ الْأَدَبْ

أَسَأْتَ عَلَى اللهِ فِي حُكْمِهِ

لِأَنَّكَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبْ

فَجَازَاكَ رَبِّي بِأَنْ زَادَنِي

وَسَدَّ عَلَيْكَ وُجُوهَ الطَّلَبْ

(وَثَانِيًا) أَنْ تُعَامِلَ مَحْسُودَكَ بِعَكْسِ مَا يَقْتَضِيهِ الْحَسَدُ، فَتُكَلِّفَ لِسَانَكَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ وَمَدْحَهُ، وَإِظْهَارَ السُّرُورِ بِنِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ، وَتَتَوَاضَعَ لَهُ، وَتَبْتَسِمَ أَمَامَهُ، وَتَعْتَذِرَ إِلَيْهِ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي حُقُوقِهِ، وَتَبْدَأَهُ بِالسَّلَامِ عَلَيْهِ إِذَا لَقِيتَهُ، وَبِالْجُمْلَةِ: تَتَوَدَّدُ إِلَيْهِ بِكُلِّ مَا اسْتَطَعْتَ، وَلَا بُدَّ أَنْ تَتَكَلَّفَ هٰذِهِ الْمُعَامَلَةَ، وَتُجَاهِدَ نَفْسَكَ عَلَيْهَا ابْتِدَاءً، حَتَّى تَعُودَ سَجِيَّةً وَطَبِيعَةً آخِرًا، وَبِذٰلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ يَصِحُّ قَلْبُكَ مِنْ دَاءِ الْحَسَدِ، وَيُحِبُّكَ قَلْبُ الْمَحْسُودِ، وَهٰكَذَا يَكُونُ تَآلُفُ الْقُلُوبِ، وَبِذٰلِكَ يُرْغَمُ أَنْفُ الشَّيْطَانِ، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَخْلُو عَنِ الْحَسَدِ، وَسُوءِ الظَّنِّ، وَالتَّشَاؤُمِ؛ وَلٰكِنْ يَلْزَمُهُ: أَنْ لَا يَعْمَلَ بِمُقْتَضَى هٰذِهِ الْخِصَالِ الثَّلَاثِ. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: ثَلَاثٌ لَا يَخْلُو مِنْهُنَّ أَحَدٌ: الْحَسَدُ وَالظَّنُّ وَالطِّيَرَةُ. أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِالْمَخْرَجِ مِنْ ذٰلِكَ؟ إِذَا حَسَدْتَ فَلَا تَبْغِ، وَإِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحَقِّقْ، وَإِذَا

تَطَيَّرْتَ فَامْضِ. أَيْ: لَا تَرْجِعْ بِسَبَبِ التَّشَاؤُمِ عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي تُرِيدُهُ.

وَإِذَا أَعْجَبَتْكَ نِعْمَةٌ عَلَى أَحَدٍ: فَاطْلُبْ مِنَ اللهِ مِثْلَهَا، فَإِنَّهُ تَعَالَى: كَرِيمٌ وَهَّابٌ، وَاسِعٌ لِلْحُصُولِ عَلَيْهَا: فَإِنَّ مَنْ جَدَّ وَجَدَ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا أَعْجَبَتْكَ خِصَالُ امْرِئٍ
فَكُنْهُ تَكُنْ مِثْلَ مَا يُعْجِبُكْ

فَلَيْسَ عَلَى الْمَجْدِ وَالْمَكْرُمَاتِ
إِذَا جِئْتَهَا حَاجِبٌ يَحْجُبُكْ

---

٢٢ : سُوءُ عَوَاقِبِ الْحَسَدِ

(١) كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولَ: أَرَادَ قَوْمُهُ بَنُو الْخَزْرَجِ أَنْ يُتَوِّجُوهُ، وَيَجْعَلُوهُ مَلِكًا عَلَيْهِمْ، فَهَاجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَبَطَلَ تَتْوِيجُهُ، فَحَسَدَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَأَضْمَرَ الْعَدَاوَةَ لَهُ، وَأَسْلَمَ ظَاهِرًا، وَفِي

الْحَقِيقَةِ هُوَ مِنْ كِبَارِ الْمُنَافِقِينَ، بَلْ رَأْسُهُمْ، وَآذَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمِينَ أَذًى عَظِيمًا، حَتَّى مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ. وَنَهَى اللهُ نَبِيَّهُ عَنِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) وَلَوْلَا حَسَدُهُ لَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَصَارَ مِثْلَ قَوْمِهِ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ قَامُوا بِنُصْرَةِ الدِّينِ.

(٢) وَكَذَلِكَ حَالُ إِبْلِيسَ، لَمَّا حَسَدَ آدَمَ عَلَى مَا خُصَّ بِهِ مِنَ الْإِجْتِبَاءِ، وَامْتَنَعَ مِنَ السُّجُودِ لَهُ: لَعَنَهُ اللهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَطَرَدَهُ مِنْ بَيْنِ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، وَأَهْبَطَهُ إِلَى الْأَرْضِ فَكَانَ قُدْوَةً لِلْكَافِرِينَ وَالْفَاسِقِينَ. وَكَذَلِكَ حَالُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يَعْرِفُونَ صِدْقَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ) وَلَكِنَّهُمْ مَا آمَنُوا بِهِ حَسَدًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) وَأَيْضًا كُفَّارُ مَكَّةَ، مَنَعَهُمُ الْحَسَدُ عَنِ الْإِيمَانِ، كَمَا أَخْبَرَ اللهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ) وَفِي الْآيَةِ

الأخرى : (مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

(٣) وَمِثْلُ ذَلِكَ : حَسَدُ قَابِيلَ ابْنِ سَيِّدِنَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَخَاهُ هَابِيلَ ، فَقَتَلَهُ ظُلْمًا : فَكَانَ أَوَّلَ إِنْسَانٍ قُتِلَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ . وَفِي الْحَدِيثِ : لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا ، إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ : كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا ، لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ . وَوَرَدَ أَيْضًا : مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً ، فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ . وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً : كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا ، وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ .

---

٢٣ - الْغِيبَةُ

(١) الْغِيبَةُ : مِنْ أَعْظَمِ آفَاتِ اللِّسَانِ ، وَهِيَ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ ، وَلَهَا أَضْرَارٌ عَظِيمَةٌ ، لِأَنَّهَا تُهَيِّجُ نَارَ الْفِتَنِ ، وَتَقْطَعُ رَوَابِطَ الْأُلْفَةِ وَالْمَحَبَّةِ بَيْنَ النَّاسِ .

وَوَرَدَ تَفْسِيرُهَا فِي حَدِيثٍ : أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ ؟ قَالُوا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ . قِيلَ : أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُهُ ؟ قَالَ : إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ : فَقَدِ اغْتَبْتَهُ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ : فَقَدْ بَهَتَّهُ . أَيْ : كَذَبْتَ وَافْتَرَيْتَ عَلَيْهِ . وَتَكُونُ الْغِيبَةُ بِذِكْرِ الْعُيُوبِ فِي دِينِ الْمُغْتَابِ أَوْ بَدَنِهِ ، أَوْ نَسَبِهِ أَوْ خُلُقِهِ ، وَفِي كُلِّ مَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ ، حَتَّى فِي ثَوْبِهِ وَدَارِهِ . وَيَكُونُ ذَلِكَ بِالْقَوْلِ أَوِ الْكِتَابَةِ ، أَوْ بِالْإِشَارَةِ أَوْ بِالْمُحَاكَاةِ : كَأَنْ يَمْشِيَ خَلْفَ الْأَعْرَجِ مُتَعَارِجًا .

(٢) وَقَدْ جَاءَ ذَمُّ الْغِيبَةِ ، وَالتَّحْذِيرُ مِنْهَا ، وَالْوَعِيدُ عَلَيْهَا ، فِي آيَاتٍ وَأَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ) أَيِ الْكَثِيرِ الْغِيبَةِ . وَشَبَّهَ اللهُ مُرْتَكِبَهَا آكِلَ لَحْمِ الْمَيْتَةِ فَقَالَ تَعَالَى : (وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ) وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : وَإِيَّاكُمْ وَالْغِيبَةَ ، فَإِنَّ الْغِيبَةَ أَشَدُّ مِنَ الزِّنَى ، فَإِنَّ الرَّجُلَ قَدْ يَزْنِي وَيَتُوبُ : فَيَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ صَاحِبَ الْغِيبَةِ لَا يُغْفَرُ لَهُ : حَتَّى يَغْفِرَ لَهُ صَاحِبُهُ .

(٣) وَقَالَ أَيْضًا : لَمَّا عُرِجَ بِي ، مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ

مِنْ نُحَاسٍ ، يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ ؟ قَالَ : الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ ، وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ، قَالَتْ : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا . قَالَ بَعْضُ الرُّوَاةِ : تَعْنِي قَصِيرَةً . قَالَ : لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ . أَيْ : لَأَنْتَنَتْهُ وَغَيَّرَتْ رِيحَهُ .

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ، قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَارْتَفَعَتْ رِيحٌ مُنْتِنَةٌ ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : أَتَرُونَ مَا هَذِهِ الرِّيحُ ؟ هَذِهِ رِيحُ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ الْمُؤْمِنِينَ . وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا : مَنْ أَكَلَ لَحْمَ أَخِيهِ فِي الدُّنْيَا : قُرِّبَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُقَالُ لَهُ : كُلْهُ مَيْتًا ، كَمَا أَكَلْتَهُ حَيًّا . فَيَأْكُلُهُ وَيَكْلَحُ وَيَضِجُّ . أَيْ : يَعْبِسُ وَيَصِيحُ .

(٤) وَالْأَسْبَابُ الدَّاعِيَةُ إِلَى الْغِيبَةِ كَثِيرَةٌ :

مِنْهَا أَنْ يَغْضَبَ عَلَى أَحَدٍ ، وَيُرِيدُ أَنْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ مِنْهُ فَيَغْتَابُهُ ، وَإِذَا عَجَزَ عَنْ ذَلِكَ : احْتَقَنَ الْغَضَبُ فِي قَلْبِهِ وَصَارَ حِقْدًا ،

وبِسَببِ الحقدِ أصبحَ دائماً يغتابُ المحقودَ.

ومنها: أنْ يحضرَ مجلساً، فيغتابُ أهلُهُ أحداً، فيشاركهم في معصيتِهم، مجاملةً لهم، خوفَ أنْ يستثقلوهُ ويعادوهُ: لو أنكرَ عليهم، أو فارقَ مجلسَهم.

ومنها: الكبرُ، فالمتكبرُ من شأنِهِ، أنْ يسخرَ من النّاسِ، ويستهزئَ بهم ويحتقرَهم، إمّا تصريحاً، وإمّا بالتّعريضِ: كأنْ يقولَ: فلانٌ جاهلٌ وبليدٌ، ليُثبتَ لنفسِهِ: أنّهُ عالمٌ وذكيٌّ.

ومنها الحسدُ، لأنّهُ لا يحبُّ أنْ يُثني النّاسُ على أحدٍ، فيذمّهُ عندَهم، كي يكفّوا عن محبّتِهِ وإكرامِهِ.

ومنها: إضاعةُ الوقتِ في الضّحكِ والكلامِ الفارغِ، فيتفكّهُ بأعراضِ النّاسِ.

(٥) والغيبةُ سهلةٌ على اللّسانِ: لكثرةِ الإلفِ والإعتيادِ، ولذلكَ ترى كثيراً من النّاسِ: لا يتورّعونَ عن هذهِ المعصيةِ الكبيرةِ، فلا تجدُ أكثرَ المجالسِ إلّا مشحونةً بالغيبةِ، لا سيّما

عِنْدَ النِّسَاءِ ؛ فَإِنَّ الْغِيبَةَ فَاكِهَةٌ لَهُنَّ وَسَلْوَةٌ ، فَخُذْ حِذْرَكَ مِنْ هٰذِهِ الْعَادَةِ الْفَاشِيَةِ ؛ لِتَسْلَمَ فِي الدَّارَيْنِ ، وَتَعِيشَ قَرِيرَ الْعَيْنِ وَعَلَيْكَ بِالْوَحْدَةِ ؛ إِذَا لَمْ تَجِدِ الْجَلِيسَ الصَّالِحَ ، لِتَسْلَمَ مِنَ الْغِيبَةِ . وَفِي الْحَدِيثِ : اَلْوَحْدَةُ خَيْرٌ مِنْ جَلِيسِ السُّوْءِ وَالْجَلِيسُ الصَّالِحُ خَيْرٌ مِنَ الْوَحْدَةِ . وَأْنَسْ بِطَاعَةِ رَبِّكَ ، وَمُطَالَعَةِ كُتُبِكَ ، فَإِنَّ فِيهَا السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ ، وَالْغَنِيمَةَ الْعَظِيمَةَ . قَالَ الْمُتَنَبِّي رَحِمَهُ اللّٰهُ :

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنَا ظَهْرُ سَابِحٍ

وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

(٦) وَعَلَيْكَ بِحِفْظِ لِسَانِكَ : فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ :

صَغِيرٌ جِرْمُهُ ، كَبِيرٌ جُرْمُهُ .

وَقَالَ الشَّاعِرُ :

احْفَظْ لِسَانَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ

لَا يَلْدَغَنَّكَ إِنَّهُ ثُعْبَانُ

كَمْ فِي الْمَقَابِرِ مِنْ قَتِيلِ لِسَانِهِ

كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الشُّجْعَانُ

وَإِذَا سَمِعْتَ غِيبَةً فِي مُسْلِمٍ: فَدَافِعْ عَنْهُ، وَامْنَعِ الْمُغْتَابَ عَنِ الْإِسْتِمْرَارِ فِي غِيبَتِهِ، وَاقْطَعْ كَلَامَهُ وَتَكَلَّمْ فِي مَوْضُوعٍ آخَرَ، وَفِي الْحَدِيثِ: مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ: رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا: مَنْ أُذِلَّ عِنْدَهُ مُؤْمِنٌ. فَلَمْ يَنْصُرْهُ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَى نَصْرِهِ: أَذَلَّهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ. فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُدَافِعَ عَنْهُ: فَأَنْكِرِ الْغِيبَةَ بِقَلْبِكَ، أَوِ اخْرُجْ مِنَ الْمَجْلِسِ، وَاحْذَرْ أَنْ تَبْقَى سَاكِتًا، أَوْ تُظْهِرَ مُوَافَقَةً لِلْمُغْتَابِ فَتَكُونَ شَرِيكَهُ فِي الْإِثْمِ. كَمَا فِي الْحَدِيثِ: الْمُسْتَمِعُ أَحَدُ الْمُغْتَابِينَ.

(٧) وَتَحْرُمُ الْغِيبَةُ أَيْضًا بِالْقَلْبِ. وَتُسَمَّى: سُوءَ الظَّنِّ ؟

مِثَالُ ذَلِكَ: أَنْ يَمْشِيَ أَحَدٌ أَمَامَكَ، وَلَمْ يُسَلِّمْ عَلَيْكَ. أَوْ يَنْقَطِعَ صَدِيقُكَ عَنْ زِيَارَتِكَ، فَتَعْتَقِدُ أَنَّهُمَا مُقَصِّرَانِ فِي حُقُوقِكَ، أَوْ مُتَكَبِّرَانِ عَلَيْكَ. فَيَنْفِرُ قَلْبُكَ عَنْهُمَا، أَوْ يَمْدَحُكَ إِنْسَانٌ، فَتَحْمِلُ مَدْحَهُ عَلَى السُّخْرِيَةِ وَالْإِسْتِهْزَاءِ بِكَ. أَوْ يَتَنَاجَى اثْنَانِ، فَتَظُنُّ أَنَّهُمَا يَتَكَلَّمَانِ عَلَيْكَ، وَقَدْ تَطْلُبُ مِنْ أَحَدِ أَصْحَابِكَ أَوْ جِيرَانِكَ شَيْئًا. فَيَعْتَذِرُ إِلَيْكَ عَنْ إِعْطَائِهِ، فَتَظُنُّ أَنَّهُ بَخِيلٌ. أَوْ لَا يُحِبُّ مُعَاوَنَتَكَ، أَوْ يُضْمِرُ الْبُغْضَ لَكَ. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْثِلَةِ. وَكُلُّ

ذٰلِكَ حَرَامٌ. قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ) وَفِي الْحَدِيثِ: خَصْلَتَانِ لَيْسَ فَوْقَهُمَا شَيْءٌ مِنَ الْخَيْرِ: حُسْنُ الظَّنِّ بِاللهِ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِعِبَادِ اللهِ، وَخَصْلَتَانِ لَيْسَ فَوْقَهُمَا شَيْءٌ مِنَ الشَّرِّ: سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ، وَسُوءُ الظَّنِّ بِعِبَادِ اللهِ.

(٨) وَقَدْ تُبَاحُ الْغِيبَةُ لِأَغْرَاضٍ صَحِيحَةٍ شَرْعِيَّةٍ، لَا يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلىٰ هٰذِهِ الْمَقَاصِدِ إِلَّا بِهَا، وَذٰلِكَ فِي حَالَةِ الْإِضْطِرَارِ، كَمَا تُبَاحُ الْمَيْتَةُ، قَالَ تَعَالىٰ: (إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ) لَا بِقَصْدِ الْحَسَدِ، وَلَا التَّفَكُّهِ بِأَعْرَاضِ النَّاسِ، وَذٰلِكَ فِي سِتَّةِ أَسْبَابٍ:

أَوَّلًا: أَنْ يَشْكُوَ الْمَظْلُومُ ظَالِمَهُ إِلىٰ حَاكِمٍ مَثَلًا: لِيَأْخُذَ بِحَقِّهِ مِنْهُ، أَوْ يَشْكُوَ التِّلْمِيذُ زَمِيلَهُ الَّذِي أَخَذَ كِتَابَهُ مَثَلًا: إِلىٰ الْأُسْتَاذِ لِيُعِيدَ إِلَيْهِ كِتَابَهُ، أَوْ يَشْكُوَ الدَّائِنُ مَدِينَهُ الْمُمَاطِلَ: إِلىٰ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَرِدَّ حَقَّهُ مِنْهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: إِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: لَيُّ الْوَاجِدِ يُحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتَهُ أَيْ: مُمَاطَلَةُ الْقَادِرِ عَلىٰ قَضَاءِ دَيْنِهِ وَتَسْوِيفُهُ: يُحِلُّ عِرْضَهُ لِلدَّائِنِ بِأَنْ يَقُولَ: ظَلَمَنِي الْمَدِينُ، وَيُحِلُّ عُقُوبَتَهُ بِالْحَبْسِ وَالتَّعْزِيرِ، وَهٰذَا يَقُومُ بِهِ الْحَاكِمُ، وَاسْتَضَافَ رَجُلٌ قَوْمًا، فَلَمْ يُحْسِنُوا ضِيَافَتَهُ،

فلمّا خرج تكلّم فيهم جهرًا بسوءٍ. فنزل قوله تعالى: ﴿لا يحبّ الله الجهر بالسّوء من القول إلاّ من ظلم. وكان الله سميعًا عليمًا﴾.

ثانيًا: أن يستعين بالغيبة على إزالة المنكر، فيقول للقادر على ردّ العاصي عن معصيته: فلانٌ يعمل كذا، فامنعه عنه، ونحو ذلك.

ثالثًا: أن يسأل المفتي فيقول مثلاً: فلانٌ ظلمني. فهل له ذلك، وكيف أتخلّص من ظلمه؟ وهذا التّعيين جائزٌ، ولكنّ الأفضل: أن لا يصرّح باسمه. وورد عن هندٍ بنت عتبة: أنّها قالت للنّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: إنّ أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلاّ ما أخذت منه، وهو لا يعلم، فقال: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف.

رابعًا: أن يحذّر المسلم من الشّرّ: فإذا استشاره أحدٌ في مشاركة إنسانٍ في تجارةٍ، أو وضع أمانةٍ عنده، أو في معاملته وغير ذلك: يجب عليه بصفته مستشارًا. أن يكشف حال هذا الإنسان للمستشير، فيذكر عيوبه على قدر الحاجة، بقصد النّصيحة فقط. وفي الحديث: المستشار مؤتمنٌ.

خَامِسًا: أَنْ يَقْصِدَ التَّعْرِيفَ بِإِنْسَانٍ، لَا بِقَصْدِ التَّنْقِيصِ وَالْإِيذَاءِ، فَيَقُولُ: فُلَانٌ الْأَعْرَجُ، أَوِ الْأَحْوَلُ، أَوِ الْأَعْمَشُ، إِذَا كَانَ مُلَقَّبًا بِهٰذِهِ الْأَلْقَابِ، وَلَوْ أَمْكَنَ تَعْرِيفُهُ بِغَيْرِ ذٰلِكَ: كَانَ أَوْلَى وَأَسْلَمَ.

سَادِسًا: أَنْ يَكُونَ مُجَاهِرًا بِفِسْقِهِ أَوْ بِدْعَتِهِ: كَالْمُتَظَاهِرِ بِشُرْبِ الْخَمْرِ، وَأَكْلِ الرِّبَا، وَلَعِبِ الْقِمَارِ، فَيَجُوزُ ذِكْرُهُ بِهٰذِهِ الْمَعَاصِي لِأَنَّهُ لَا يَكْرَهُ أَنْ يُذْكَرَ بِهَا. وَفِي الْحَدِيثِ: مَنْ أَلْقَى جِلْبَابَ الْحَيَاءِ عَنْ وَجْهِهِ: فَلَا غِيبَةَ لَهُ. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: أَتَرْعَوْنَ عَنْ ذِكْرِ الْفَاجِرِ؟ اهْتِكُوهُ حَتَّى يَعْرِفَهُ النَّاسُ، اذْكُرُوهُ بِمَا فِيهِ، حَتَّى يَحْذَرَهُ النَّاسُ. وَمَعْنَى أَتَرْعَوْنَ: أَتَتَحَرَّجُونَ وَتَمْتَنِعُونَ وَوَرَدَ أَيْضًا: أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ، ائْذَنُوا لَهُ، فَبِئْسَ رَجُلُ الْعَشِيرَةِ هُوَ، ثُمَّ لَمَّا دَخَلَ: أَلَانَ لَهُ الْقَوْلَ، فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ الَّذِي يُكْرَمُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ.

(٩) وَيَجِبُ عَلَى الْمُغْتَابِ: أَنْ يَنْدَمَ وَيَتُوبَ، وَلِلتَّوْبَةِ مِنَ الْغِيبَةِ كَغَيْرِهَا مِنَ الْمَعَاصِي الَّتِي بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ الْعِبَادِ أَرْبَعَةُ شُرُوطٍ: النَّدَمُ بِالْقَلْبِ، وَالْإِقْلَاعُ عَنِ الذَّنْبِ، وَالْعَزْمُ

عَلى أَنْ لا يَعُودَ إلى الذَّنْبِ، وَالإسْتِحْلالُ مِمَّنِ اغْتابَهُ، بِأَنْ يَطْلُبَ الْعَفْوَ مِنْهُ وَالْمُسامَحَةَ. وَفِي الْحَدِيثِ: مَنْ كانَتْ لِأَخِيهِ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ فِي عِرْضٍ أَوْ مالٍ: فَلْيَسْتَحِلَّها مِنْهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَيْسَ هُناكَ دِينارٌ وَلا دِرْهَمٌ. إِنَّما يُؤْخَذُ مِنْ حَسَناتِهِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَناتٌ، أُخِذَ مِنْ سَيِّئاتِ صاحِبِهِ. فَزِيدَتْ عَلى سَيِّئاتِهِ. فَإِنْ كانَ الَّذِي اغْتابَهُ غائِبًا، أَوْ قَدْ ماتَ، وَلَمْ يُمْكِنِ اسْتِحْلالُهُ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُكْثِرَ الدُّعاءَ وَالإسْتِغْفارَ لَهُ، وَيَزْدادَ مِنْ فِعْلِ الْحَسَناتِ.

---

٢٤ ـ شَواهِدُ عَلى خَطَرِ الْغِيبَةِ

(١) قالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَمَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ النّاسَ بِصَوْمِ يَوْمٍ، فَقالَ: لا يُفْطِرَنَّ أَحَدٌ، حَتّى آذَنَ لَهُ فَصامَ النّاسُ، حَتّى إِذا أَمْسَوْا: جَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ فَيَقُولُ يا رَسُولَ اللهِ، ظَلَلْتُ صائِمًا، فَأْذَنْ لِي لِأُفْطِرَ، فَيَأْذَنُ لَهُ، الرَّجُلُ وَالرَّجُلُ، حَتّى جاءَ رَجُلٌ فَقالَ: يا رَسُولَ اللهِ، فَتاتانِ مِنْ أَهْلِي ظَلَّتا صائِمَتَيْنِ، وَإِنَّهُما تَسْتَحِيانِ أَنْ تَأْتِيَاكَ، فَأْذَنْ لَهُما أَنْ تُفْطِرا، فَأَعْرَضَ

عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ عَاوَدَهُ وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ وَاللهِ أَنَّهُمَا قَدْ مَاتَتَا ، أَوْ كَادَتَا أَنْ تَمُوتَا ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ائْتُونِي بِهِمَا ، فَجَاءَتَا فَدَعَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِقَدَحٍ ، فَقَالَ لِإِحْدَاهُمَا : قِيئِي ، فَقَاءَتْ مِنْ قَيْحٍ وَدَمٍ وَصَدِيدٍ ، حَتَّى مَلَأَتِ الْقَدَحَ ، وَقَالَ لِلْأُخْرَى : قِيئِي ، فَقَاءَتْ كَذَلِكَ ، فَقَالَ إِنَّ هَاتَيْنِ صَامَتَا عَمَّا أَحَلَّ اللهُ لَهُمَا ، وَأَفْطَرَتَا عَلَى مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمَا جَلَسَتْ إِحْدَاهُمَا إِلَى الْأُخْرَى ، فَجَعَلَتَا تَأْكُلَانِ لُحُومَ النَّاسِ .

(٢) رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللهُ ، أَنَّ رَجُلاً قَالَ لَهُ : إِنَّ فُلَانًا قَدِ اغْتَابَكَ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ رُطَباً عَلَى طَبَقٍ ، وَقَالَ : قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ أَهْدَيْتَ إِلَيَّ مِنْ حَسَنَاتِكَ فَأَرَدْتُ أَنْ أُكَافِئَكَ عَلَيْهَا ، فَاعْذُرْنِي فَإِنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أُكَافِئَكَ عَلَى التَّمَامِ .

٢٥ـ النَّمِيمَةُ وَالسِّعَايَةُ

(١) اَلنَّمِيمَةُ: نَقْلُ كَلاَمِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ إِلى بَعْضٍ، لِقَصْدِ الإِفْسَادِ وَالْفِتْنَةِ بَيْنَهُمْ. وَهِيَ: مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَفَاسِدِ الْعَظِيمَةِ، وَهِيَ: أَشَدُّ مِنَ الْغِيبَةِ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: (وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ) وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: لاَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ وَهُوَ النَّمَّامُ. وَقَالَ أَيْضًا: أَحَبُّكُمْ إِلَى اللهِ، أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقًا، الْمُوَطَّؤُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَى اللهِ: الْمَشَّاؤُونَ بِالنَّمِيمَةِ، الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الإِخْوَانِ، الْمُلْتَمِسُونَ لِلْبُرَآءِ الْعَثَرَاتِ. وَقَالَ أَيْضًا: إِنَّ النَّمِيمَةَ وَالْحِقْدَ فِي النَّارِ، لاَيَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ مُسْلِمٍ.

وَمَرَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: إِنَّهُمَا يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ (أَيْ: يَظُنَّانِ أَنَّ سَبَبَ الْعَذَابِ لَيْسَ بِكَبِيرٍ) بَلى إِنَّهُ كَبِيرٌ، أَمَّا أَحَدُهُمَا: فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الآخَرُ: فَكَانَ لاَيَسْتَبْرِئُ مِنْ بَوْلِهِ.

(٢) وَقَالَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ: اَلنَّمَّامُ شَرٌّ مِنَ الْحَاسِدِ، وَيَعْمَلُ

النَّمَّامُ فِي سَاعَةٍ، مَا لَا يَعْمَلُ السَّاحِرُ فِي شَهْرٍ. وَيُقَالُ: عَمَلُ النَّمَّامِ أَضَرُّ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، لِأَنَّ عَمَلَ الشَّيْطَانِ بِالْخَيَالِ وَالْوَسْوَسَةِ، وَعَمَلُ النَّمَّامِ بِالْمُوَاجَهَةِ وَالْمُعَايَنَةِ. وَيُقَالُ: عَذَابُ الْقَبْرِ ثَلَاثَةُ أَثْلَاثٍ، ثُلُثٌ فِي الْغِيبَةِ، وَثُلُثٌ فِي الْبَوْلِ، وَثُلُثٌ فِي النَّمِيمَةِ.

(٣) وَإِيَّاكَ أَيْضًا وَالسِّعَايَةَ، وَهِيَ نَقْلُ الْكَلَامِ وَالْخَبَرِ إِلَى مَنْ يُخَافُ جَانِبُهُ: كَالْحُكَّامِ وَالْوُلَاةِ، وَذَلِكَ لِقَصْدِ إِغْرَائِهِمْ بِإِيذَاءِ مَنْ سُعِيَ بِهِ إِلَيْهِمْ: بِالْحَبْسِ، أَوِ الْقَتْلِ، أَوْ نَهْبِ الْأَمْوَالِ. وَالسِّعَايَةُ: أَفْحَشُ مِنَ النَّمِيمَةِ، وَإِثْمُهَا مُضَاعَفٌ. وَفِي الْحَدِيثِ: مَنْ سَعَى بِالنَّاسِ فَهُوَ لِغَيْرِ رِشْدَةٍ. يَعْنِي: لَيْسَ بِوَلَدِ حَلَالٍ. وَشَرٌّ مِنَ النَّمَّامِ أَيْضًا: ذُو اللِّسَانَيْنِ، وَذُو الْوَجْهَيْنِ، وَهُوَ: الَّذِي يَنْقُلُ كَلَامَ كُلٍّ مِنَ الْمُتَعَادِيَيْنِ إِلَى الْآخَرِ. وَالنَّمَّامُ: يَنْقُلُ كَلَامَ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ فَقَطْ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: مَنْ كَانَ لَهُ وَجْهَانِ فِي الدُّنْيَا: كَانَ لَهُ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. قَالَ أَيْضًا: تَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللهِ: ذَا الْوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ، وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ.

٤) وَإِذَا بُلِيتَ بِنَمَّامٍ : فَعَلَيْكَ أَنْ تُرَاعِيَ هٰذِهِ الأُمُورَ السِّتَّةَ :

(الأَوَّلُ) : لاتُصَدِّقْهُ ؛ لِأَنَّ النَّمَّامَ فَاسِقٌ، وَهُوَ مَرْدُودُ الشَّهَادَةِ. قَالَ اللهُ تَعَالىٰ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلىٰ فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ). وَجَاءَ رَجُلٌ إِلىٰ سَيِّدِنَا عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فَنَمَّ لَهُ عَنْ شَخْصٍ، فَقَالَ اذْهَبْ بِنَا إِلَيْهِ فَذَهَبَ مَعَهُ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ يَنْتَصِرُ لِنَفْسِهِ فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ قَالَ يَا أَخِي إِنْ كَانَ مَا قُلْتَ فِيَّ حَقًّا فَغَفَرَ اللهُ لِي أَوْ بَاطِلًا فَغَفَرَ اللهُ لَكَ.

(الثَّانِي) : أَنْ تُبْغِضَهُ فِي اللهِ تَعَالىٰ، وَيَجِبُ بُغْضُ مَنْ يُبْغِضُهُ اللهُ، وَكَيْفَ لَا وَعَادَةُ النَّمَّامِ الكَذِبُ وَالْغِيبَةُ، وَالْغَدْرُ وَالْخِيَانَةُ، وَسَجِيَّتُهُ الحَسَدُ، وَالإِفْسَادُ بَيْنَ النَّاسِ. وَالنَّمَّامُ عَدُوٌّ لَكَ، فَقَدْ كَدَّرَ عَلَيْكَ صَفْوَكَ، وَسَعىٰ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَحِبَّائِكَ، وَتَجَرَّأَ عَلَيْكَ بِالشَّتْمِ. قَالَ الشَّاعِرُ :

مَنْ يُخْبِرْكَ بِشَتْمٍ عَنْ أَخٍ
فَهُوَ الشَّاتِمُ لَا مَنْ شَتَمَكْ

ذَاكَ شَيْءٌ لَمْ يُوَاجِهْكَ بِهِ

إِنَّمَا اللَّوْمُ عَلَى مَنْ أَعْلَمَكْ

كَيْفَ لَمْ يَنْصُرْكَ إِنْ كَانَ أَخَا

ذَا حِفَاظٍ عِنْدَ مَنْ قَدْ ظَلَمَكْ

وَكَمَا نَقَلَ النَّمَّامُ كَلَامَ غَيْرِكَ إِلَيْكَ : يَنْقُلُ كَلَامَكَ إِلَى غَيْرِكَ . قَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللهُ : مَنْ نَمَّ لَكَ ، نَمَّ عَلَيْكَ وَقَالَ الشَّاعِرُ :

لَا تَقْبَلَنَّ نَمِيمَةً بُلِّغْتَهَا

وَتَحَفَّظَنَّ مِنَ الَّذِى أَنْبَاكَهَا

إِنَّ الَّذِى أَنْبَاكَ عَنْهُ نَمِيمَةً

سَيَدُبُّ عَنْكَ بِمِثْلِهَا قَدْ حَاكَهَا

وَقَالَ آخَرُ :

مَنْ نَمَّ فِى النَّاسِ لَمْ تُؤْمَنْ عَقَارِبُهُ

عَلَى الصَّدِيقِ وَلَمْ تُؤْمَنْ أَفَاعِيهِ

(الثَّالِثُ) : أَنْ تَأْمُرَهُ بِتَرْكِ النَّمِيمَةِ ، وَتَنْهَاهُ عَنِ الْإِسْتِمْرَارِ فِيهَا ، عَمَلًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ) .

(اَلرَّابِعُ): أَنْ لَا تُسِيْءَ الظَّنَّ بِأَخِيْكَ الْغَائِبِ: فَإِنَّ ذٰلِكَ حَرَامٌ، وَلَا يَصْدُرُ إِلَّا مِنْ سَيِّئِ الْأَفْعَالِ، كَمَا قَالَ الْمُتَنَبِّى رَحِمَهُ اللّٰهُ:

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُوْنُهُ
وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ
وَعَادَى مُحِبِّيْهِ بِقَوْلِ عِدَاتِهِ
وَأَصْبَحَ فِى لَيْلٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمِ

(اَلْخَامِسُ): أَنْ لَا تَتَجَسَّسَ عَلٰى أَخِيْكَ، وَلَا تَبْحَثَ عَنْ صِدْقِ كَلَامِ النَّمَّامِ، لِقَوْلِهِ تَعَالٰى: (وَلَا تَجَسَّسُوْا).

(اَلسَّادِسُ): أَنْ لَا تَحْكِىَ لِأَحَدٍ كَلَامَ النَّمَّامِ: كَيْلَا تَكُوْنَ بِهِ نَمَّامًا وَمُغْتَابًا، فَتَقَعَ فِيْمَا نُهِيْتَ عَنْهُ.

(٥) وَالنَّمَّامُ إِنْ صَدَقَ: فَصِدْقُهُ قَبِيْحٌ، قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: اَلصِّدْقُ يَزِيْنُ كُلَّ أَحَدٍ إِلَّا السُّعَاةَ، فَإِنَّ السَّاعِىَ أَذَمُّ وَآثَمُ مَا يَكُوْنُ إِذَا صَدَقَ.

٢٦ـ كيف يفسد النمامون

(١) حكى أن رجلاً ماتت أخته، فلما دفنت سقط من جيبه في قبرها: ذهب كان معه، فرجع ليلاً ونبش القبر، فوجده ممتلئاً ناراً، فرجع إلى أمه فقال لها: أخبريني ما كانت تفعل أختي من المنكر؟ فقالت له: لا أعرف منكراً إلا أنها كانت تخرج ليلاً، فتستمع على أبواب الجيران ما يقولون، وتنم به، فيقع بذلك بينهم فتنة، فقال: هو ذاك، وأخبرها بالحال.

(٢) قال حماد بن سلمة رحمه الله: باع رجل عبداً، وقال للمشترى: ما فيه عيب إلا النميمة، قال: قد رضيت، فاشتراه فمكث الغلام أياماً، ثم قال لزوجة مولاه: إن سيدى لا يحبك وهو يريد أن يتسرى عليك (أى يتزوج أمة) فخذى الموسى، واحلقى من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها فيحبك. ثم قال للزوج: إن امرأتك اتخذت خليلاً، وتريد أن تقتلك، فتناوم لها، حتى تعرف ذلك، فتناوم لها، فجاءت المرأة بالموسى، فظن أنها تريد قتله، فقام إليها فقتلها، فجاء أهل المرأة، فقتلوا الزوج، ووقع القتال بين القبيلتين. وهذه

نَتِيجَةُ النَّمِيمَةِ .

(٣) سَعَى رَجُلٌ بِرَجُلٍ عِنْدَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللهُ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا هٰذَا، إِنْ شِئْتَ نَظَرْنَا فِي أَمْرِكَ، فَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَأَنْتَ دَاخِلٌ تَحْتَ حُكْمِ هٰذِهِ الْآيَةِ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا) وَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا، فَأَنْتَ دَاخِلٌ تَحْتَ حُكْمِ هٰذِهِ الْآيَةِ: (هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ) فَسَكَتَ الرَّجُلُ، وَلَمْ يُبْدِ جَوَابًا.

(٤) قَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: كَانَ رَجُلٌ يَغْشَى بَعْضَ الْمُلُوكِ، فَيَقُومُ بِحِذَاءِ الْمَلِكِ فَيَقُولُ: أَحْسِنْ إِلَى الْمُحْسِنِ بِإِحْسَانِهِ، فَإِنَّ الْمُسِيءَ سَتَكْفِيهِ إِسَاءَتُهُ، فَحَسَدَهُ رَجُلٌ عَلَى ذٰلِكَ الْمَقَامِ وَالْكَلَامِ فَسَعَى بِهِ إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ: هٰذَا الَّذِي يَقُومُ بِحِذَائِكَ وَيَقُولُ مَا يَقُولُ زَعَمَ أَنَّ الْمَلِكَ أَبْخَرُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ يَصِحُّ ذٰلِكَ عِنْدِي؟ قَالَ: تَدْعُوهُ إِلَيْكَ، فَإِنَّهُ إِذَا دَنَا مِنْكَ: وَضَعَ يَدَهُ عَلَى أَنْفِهِ، لِئَلَّا يَشُمَّ رِيحَ الْبَخَرِ، فَقَالَ لَهُ: انْصَرِفْ حَتَّى أَنْظُرَ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ، فَدَعَا الرَّجُلَ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَأَطْعَمَهُ طَعَامًا فِيهِ ثُومٌ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ عِنْدِهِ، وَقَامَ بِحِذَاءِ الْمَلِكِ عَلَى عَادَتِهِ، فَقَالَ: أَحْسِنْ إِلَى الْمُحْسِنِ بِإِحْسَانِهِ، فَإِنَّ الْمُسِيءَ

سَتَكْفِيهِ إِسَاءَتُهُ. فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: اُدْنُ مِنِّي. فَدَنَا مِنْهُ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فِيهِ، مَخَافَةَ أَنْ يَشُمَّ المَلِكُ مِنْهُ رَائِحَةَ الثُّومِ. فَقَالَ المَلِكُ فِي نَفْسِهِ: مَا أَرَى فُلَانًا إِلَّا قَدْ صَدَقَ. قَالَ. وَكَانَ المَلِكُ لَا يَكْتُبُ بِخَطِّهِ إِلَّا بِجَائِزَةٍ أَوْ صِلَةٍ، فَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا بِخَطِّهِ إِلَى عَامِلٍ مِنْ عُمَّالِهِ: إِذَا أَتَاكَ حَامِلُ كِتَابِي هٰذَا: فَاذْبَحْهُ وَاسْلَخْهُ وَاحْشُ جِلْدَهُ تِبْنًا. وَابْعَثْ بِهِ إِلَيَّ. فَأَخَذَ الكِتَابَ وَخَرَجَ، فَلَقِيَهُ الرَّجُلُ الَّذِي سَعَى بِهِ، فَقَالَ: مَا هٰذَا الكِتَابُ؟ قَالَ خَطُّ المَلِكِ لِي بِصِلَةٍ. فَقَالَ: هَبْهُ لِي. فَقَالَ: هُوَ لَكَ. فَأَخَذَهُ وَمَضَى بِهِ إِلَى العَامِلِ. فَقَالَ العَامِلُ: فِي كِتَابِكَ أَنْ أَذْبَحَكَ وَأَسْلَخَكَ، قَالَ لَيْسَ لِكِتَابِ المَلِكِ مُرَاجَعَةٌ. فَذَبَحَهُ وَسَلَخَهُ وَحَشَا جِلْدَهُ تِبْنًا وَبَعَثَ بِهِ. ثُمَّ عَادَ الرَّجُلُ إِلَى المَلِكِ كَعَادَتِهِ، وَقَالَ: مِثْلَ قَوْلِهِ. فَعَجِبَ المَلِكُ، وَقَالَ: مَا فَعَلَ الكِتَابُ؟ فَقَالَ: لَقِيَنِي فُلَانٌ فَاسْتَوْهَبَهُ مِنِّي. فَوَهَبْتُهُ لَهُ. قَالَ المَلِكُ: إِنَّهُ ذَكَرَ لِي أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنِّي أَبْخَرُ. قَالَ: مَا قُلْتُ ذٰلِكَ. قَالَ: فَلِمَ وَضَعْتَ يَدَكَ عَلَى فِيكَ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ أَطْعَمَنِي طَعَامًا فِيهِ ثُومٌ، فَكَرِهْتُ أَنْ تَشُمَّهُ. قَالَ: صَدَقْتَ. اِرْجِعْ إِلَى مَكَانِكَ. فَقَدْ كَفَاكَ المُسِيءُ إِسَاءَتَهُ، وَوَصَلَهُ المَلِكُ بِمَالٍ عَظِيمٍ.

٢٧ ـ الْخَاتِمَةُ: فِي نَصَائِحَ عَامَّةٍ (١)

أَيُّهَا الْوَلَدُ الْعَزِيزُ:

(١) إِنَّكَ تَعِيشُ فِي زَمَانٍ يَكُونُ الصَّابِرُ فِيهِ عَلَى دِينِهِ، كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ. فَيَلْزَمُكَ أَنْ تَتَمَسَّكَ بِدِينِكَ فِي كُلِّ حَالٍ، وَأَنْ تَصْبِرَ عَلَى ذٰلِكَ صَبْرَ الْأَقْوِيَاءِ مِنَ الرِّجَالِ، وَأَنْ تُحَافِظَ غَايَةَ الْمُحَافَظَةِ، عَلَى هٰذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي هِيَ أَفْضَلُ النِّعَمِ، أَلَا وَهِيَ نِعْمَةُ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، فَلَا تَتْرُكْ شَيْئًا مِنْ أَوَامِرِ دِينِكَ، وَلَوْ فِي أَشَدِّ الْأَوْقَاتِ، وَلَا تَخْشَى فِيهِ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالضَّلَالِ، وَدُعَاةِ الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ، وَتَبْتَعِدَ عَنْ مَجَالِسِهِمْ، وَالْإِصْغَاءِ إِلَى دِعَايَاتِهِمُ الْكَاذِبَةِ، وَمُطَالَعَةِ كُتُبِهِمُ الْجَذَّابَةِ، فَإِنَّهَا سُمُومٌ قَاتِلَةٌ، وَقَدْ أَلَّفُوهَا لِيَهْدِمُوا بِهَا عَقَائِدَ الْمُسْلِمِينَ، وَيُفْسِدُوا بِهَا أَخْلَاقَهُمْ وَعَادَاتِهِمْ.

(٢) وَعَلَيْكَ بِتَقْوِيَةِ إِيمَانِكَ، وَتَثْبِيتِ يَقِينِكَ، وَذٰلِكَ

بِكَثْرَةِ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَقِرَاءَةِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ، وَكُتُبِ الْعُلَمَاءِ النَّاصِحِينَ، وَمُجَالَسَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالصَّلَاحِ وَالتَّقْوٰى، لِتَسْعَدَ فِى دِينِكَ وَدُنْيَاكَ.

وَعَلَيْكَ أَيْضًا بِالْإِجْتِهَادِ فِى كَسْبِ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ، وَبَذْلِ الْوُسْعِ فِى تَحْسِينِ أَخْلَاقِكَ، وَتَزْكِيَةِ نَفْسِكَ، مَادَامَتِ الْفُرْصَةُ سَانِحَةً، وَأَنْتَ فِى عُنْفُوَانِ شَبَابِكَ، قَبْلَ أَنْ تَضِيعَ الْفُرْصَةُ، فَتَعَضَّ بَنَانَ النَّدَمِ، وَلَا يَنْفَعُكَ الْأَسَفُ وَلَوْ بَكَيْتَ الدَّمَ. وَاعْلَمْ: أَنَّكَ رَاحِلٌ كُلَّ يَوْمٍ عَنْ هٰذَا الْعَالَمِ الْفَانِى إِلَى الْعَالَمِ الْبَاقِى، فَانْظُرْ مَا ذَا أَعْدَدْتَ لِيَوْمِ غَدِكَ. قَالَ اللّٰهُ تَعَالٰى: (يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ).

(٣) قُمْ بِوَاجِبَاتِكَ نَحْوَ رَبِّكَ وَنَبِيِّكَ، وَنَحْوَ وَالِدَيْكَ، وَأَسَاتِذَتِكَ، وَكَافَّةِ أَقَارِبِكَ وَجِيرَانِكَ وَبَنِى جِنْسِكَ، وَنَحْوَ جَمِيعِ النَّاسِ، وَقُمْ بِوَاجِبِكَ نَحْوَ دِينِكَ وَلُغَتِكَ، وَمَدْرَسَتِكَ وَتَعْلِيمِكَ، وَنَحْوَ تِجَارَتِكَ وَصِنَاعَتِكَ وَسَائِرِ عَمَلِكَ، إِذَا أَصْبَحْتَ تَاجِرًا أَوْ عَامِلًا، فَإِنَّ الْقِيَامَ بِالْوَاجِبِ يُرِيحُ النَّفْسَ، وَيُكْسِبُ الْإِنْسَانَ ثِقَةً تَامَّةً بَيْنَ النَّاسِ، وَيُسَبِّبُ سَعَادَةً بَيْنَ

أَفْرَادِ الْمَجْمُوعِ الْبَشَرِيِّ. وَبِالْعَكْسِ تَرْكُ الْقِيَامِ بِالْوَاجِبِ، فَإِنَّهُ يُفْقِدُ ثِقَةَ الْإِنْسَانِ وَيُسْقِطُ مَنْزِلَتَهُ بَيْنَ الْخَلْقِ، وَيُورِثُ الْفَوْضَى وَالْفَسَادَ. وَالشَّقَاءَ بَيْنَ جَمِيعِ الطَّبَقَاتِ.

(٤) تَفَكَّرْ فِي مُسْتَقْبَلِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَا تَدُومُ فِي سِنِّ الصِّغَرِ فَارِغَ الْبَالِ، مَكْفِيَّ الْمُؤُونَةِ، فَسَوْفَ تَخُوضُ غِمَارَ الْحَيَاةِ، وَتُكَلَّفُ الْقِيَامُ بِمَصَالِحِ نَفْسِكَ وَأُسْرَتِكَ، وَحِينَذَاكَ اخْتَرْ لَكَ عَمَلًا شَرِيفًا، وَإِيَّاكَ أَنْ تَتْرُكَ الْعَمَلَ، فَتَكُونَ كَلًّا عَلَى غَيْرِكَ، فَالرِّزْقُ وَإِنْ كَانَ مَقْسُومًا. فَلَا بُدَّ مِنَ السَّعْيِ فِي تَحْصِيلِهِ، فَإِنَّ لِلْحَرَكَةِ بَرَكَةً. وَفِي حَدِيثِ سَيِّدِنَا عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ أَرَى أَحَدَكُمْ سَبَهْلَلًا، لَا فِي عَمَلِ دُنْيَا، وَلَا فِي عَمَلِ آخِرَةٍ. وَقَالَ أَيْضًا: لَا يَقْعُدُ أَحَدُكُمْ عَنْ طَلَبِ الرِّزْقِ، وَيَقُولُ: اَللّٰهُمَّ ارْزُقْنِي. وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ السَّمَاءَ لَا تُمْطِرُ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً، وَأَنَّ اللّٰهَ تَعَالَى إِنَّمَا يَرْزُقُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ وَاذْكُرُوا اللّٰهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

(٥) أَرْسِخْ فِي قَلْبِكَ صِفَةَ الرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ

وَالْحَيَوانِ: لِيَرْحَمَكَ رَبُّكَ، وَفِي الْحَدِيثِ: إِرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ. مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ. لَا تُنْزَعُ الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ. مَنْ رَحِمَ وَلَوْ ذَبِيحَةَ عُصْفُورٍ رَحِمَهُ اللهُ. وَكَمْ فِي هٰذِهِ الدُّنْيَا مِنْ ضُعَفَاءِ وَمَسَاكِينَ، وَبُؤَسَاءَ وَمَلْهُوفِينَ، وَأَيْتَامٍ وَمَرْضَى وَعَجَائِزَ وَشُيُوخٍ وَجُهَّالٍ وَحَائِرِينَ! فَمُدَّ إِلَيْهِمْ يَدَ الْمُسَاعَدَةِ بِكُلِّ مَا اسْتَطَعْتَ، إِمَّا بِعِلْمِكَ، أَوْ بِمَالِكَ، أَوْ بِفِكْرِكَ، أَوْ بِوَجَاهَتِكَ بِأَنْ تَشْفَعَ لِأَحَدٍ فِي قَضَاءِ حَاجَتِهِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا).

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: إِشْفَعُوا تُؤْجَرُوا. فَإِذَا أَحْسَنْتَ إِلَى غَيْرِكَ: فَسَيُحْسِنُ هُوَ إِلَيْكَ وَقْتَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ، وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَوِيًّا الْيَوْمَ فَسَيَكُونُ ضَعِيفًا غَدًا، وَمَنْ كَانَ شَابًّا فَسَيُدْرِكُهُ الْكِبَرُ، وَمَنْ هُوَ غَنِيٌّ فَلَا يَأْمَنُ مِنْ أَنْ يَفْتَقِرَ. وَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهُمُ
فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانَ إِحْسَانُ

وَكُنْ عَلَى الدَّهْرِ مِعْوَانًا لِذِي أَمَلٍ
يَرْجُو نَدَاكَ فَإِنَّ الْحُرَّ مِعْوَانُ

وَقالَ آخَرُ :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ
لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ

نَصَائِحُ عَامَّةٌ (٢)

(١) وَاحْذَرْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَضُرُّكَ : فَلَا تَعْتَدْ شَيْئًا مُضِرًّا، وَإِنْ كَانَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَعْتَادُونَهُ، وَذَلِكَ : مِثْلُ شُرْبِ الدُّخَانِ. وَقَدْ يَظُنُّ بَعْضُ الْأَوْلَادِ. أَنَّ التَّدْخِينَ عَلَامَةٌ مِنْ عَلَامَاتِ الرُّجُولَةِ، فَيَتَعَاطُونَهُ وَهُمْ جَاهِلُونَ أَضْرَارَهُ، وَهِيَ كَثِيرَةٌ، فَمِنْهَا : أَنَّهُ يُضْعِفُ الْقَلْبَ، وَيَمْنَعُ مِنْ نُمُوِّ الْجِسْمِ، وَيُذْهِبُ شَهْوَةَ الطَّعَامِ، وَيَضُرُّ الرِّئَتَيْنِ، وَيُسَبِّبُ شُحُوبَ لَوْنِ الْوَجْهِ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ سُمٌّ بَطِيءٌ، تَظْهَرُ أَضْرَارُهُ بَعْدَ زَمَنٍ، وَلَاسِيَّمَا وَقْتَ الشَّيْخُوخَةِ، وَلِذَلِكَ أَجْمَعَ الْأَطِبَّاءُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ عَلَى تَحَقُّقِ أَضْرَارِهِ وَأَخْطَارِهِ وَأَنَّهُ يُسَبِّبُ دَاءَ السَّرَطَانِ، فَاحْذَرِ التَّدْخِينَ غَايَةَ الْحَذَرِ، لِتُحَافِظَ عَلَى صِحَّتِكَ مِنَ الْأَمْرَاضِ، وَ

عَلى مالِكَ مِنَ الضَّياعِ ، وإيَّاكَ أنْ يغُرَّكَ الشَّيطانُ ، فتبدأ في التَّدخِينِ ولوْ كانَ قليلاً ، فإنَّهُ يجُرُّ إلى الكثيرِ ، فيُصبحُ عادةً راسخةً يصعُبُ تركُها كما يقالُ في الخمرِ : عِندَ الكأسِ الأولى.

(٢) والحذرَ كلَّ الحذرِ من مقاربةِ الزنى والخمرِ والقمارِ فإنَّها تهوي بمرتكبيها إلى مهاوي العارِ والدَّمارِ ، وتؤدِّي إلى خرابِ الدِّيارِ ، وفي الآخرةِ إلى شدَّةِ عذابِ النَّارِ . قالَ اللهُ تعالى (ولا تقربوا الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بطنَ) وقالَ تعالى : (ولا تقربُوا الزِّنى إنَّهُ كانَ فاحشةً وساءَ سبيلاً) وقالَ تعالى : (يا أيُّها الَّذينَ آمنوا إنَّما الخمرُ والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ رجسٌ من عملِ الشَّيطانِ فاجتنبوهُ لعلَّكم تفلحونَ إنَّما يريدُ الشَّيطانُ أنْ يوقعَ بينكمُ العداوةَ والبغضاءَ في الخمرِ والميسرِ ويصدَّكم عن ذكرِ اللهِ وعنِ الصَّلاةِ فهل أنتم منتهونَ) .

وكم من صحَّةٍ سقمتْ ، وعقولٍ تغيَّرتْ ، وأخلاقٍ فسدتْ ، وديارٍ تهدَّمتْ ، وأسرٍ انحلَّتْ ، وأموالٍ تبدَّدتْ ، بسببِ هذهِ الفواحشِ الموبقاتِ ، فاجتنبها كلَّ الاجتنابِ ، وابتعدْ عن مرتكبيها أشدَّ من ابتعادكَ من المصابينَ بالأمراضِ المعديةِ ، وقد فشتْ هذهِ المنكراتُ الفظيعةُ في هذا العصرِ المفتونِ ، سلَّمنا

اللهُ وإيّاكَ وجميعَ المسلمينَ منها، ومِنْ جميعِ المعاصي، فإنّها تُورِثُ خسارةَ الدُّنيا والآخرةِ، والعياذُ باللهِ منها، ذلكَ هُوَ الخسرانُ المبينُ.

(٣) تعلَّمِ اللُّغةَ العربيّةَ، وأحبَّها من قلبِكَ، وتكلَّمْ بها، وانشُرْها بينَ أسرتِكَ وقومِكَ وسائرِ النّاسِ، ودافِعْ عنها، فإنّها لُغةُ الدِّينِ، وقدِ اختارَها اللهُ تعالى على غيرِها من اللُّغاتِ، وأنزلَ بها القرآنَ الكريمَ. قالَ عزَّ وجلَّ: (إنّا جعلناهُ قرآنًا عربيًّا لعلَّكُمْ تعقلونَ) فإذا رأيتَ مسلمًا يستهزئُ باللُّغةِ العربيّةِ، فانصحْهُ وعرِّفْهُ أنَّ الاستهزاءَ بها يؤدّي إلى بغضِ النّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ وبغضُهُ كفرٌ. كما وردَ في الحديثِ: يا سلمانُ لا تبغضْني فتفارقَ دينَكَ: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، كيفَ أبغضُكَ وبكَ هداني اللهُ، قالَ: لا تبغضِ العربَ فتبغضَني، مَنْ غشَّ العربَ: لم يدخلْ في شفاعتي، ولم تنلْهُ مودّتي. وأمرَ النّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ بحبِّ العربِ فقالَ: أحبّوا العربَ لثلاثٍ: لأنّي عربيٌّ، والقرآنُ عربيٌّ، وكلامُ أهلِ الجنّةِ عربيٌّ.

(٤) وعليكَ أيضًا: أنْ تحبَّ أهلَ بيتِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ

وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ وَالْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ، وَالْأَوْلِيَاءِ الصَّالِحِينَ، فَهُمُ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الدِّينِ، وَحَمَلُوا إِلَيْنَا الْقُرْآنَ، وَأَحَادِيثَ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، فَمَحَبَّتُهُمْ تُقَوِّي الْإِيمَانَ وَتَحْفَظُهُ، وَبُغْضُهُمْ يُضْعِفُهُ بَلْ يُزِيلُهُ، فَفِي الْحَدِيثِ: بُغْضُ بَنِي هَاشِمٍ وَالْأَنْصَارِ كُفْرٌ، وَبُغْضُ الْعَرَبِ نِفَاقٌ. وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: احْفَظُونِي فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا مِنْ بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَفِي الْحَدِيثِ أَيْضًا: وَاللهِ لَا يَدْخُلُ قَلْبَ رَجُلٍ إِيمَانٌ حَتَّى يُحِبَّكُمْ لِلهِ وَلِقَرَابَتِي، وَوَرَدَ أَيْضًا: أَكْرِمُوا الْعُلَمَاءَ فَإِنَّهُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، فَمَنْ أَكْرَمَهُمْ فَقَدْ أَكْرَمَ اللهَ وَرَسُولَهُ. فَإِذَا أَبْغَضْنَاهُمْ وَلَمْ نَقُمْ بِاحْتِرَامِهِمْ، وَلَمْ نَمْشِ عَلَى طَرِيقَتِهِمْ فَقَدْ ضَيَّعْنَا الدِّينَ، وَهٰذَا هُوَ الَّذِي يُرِيدُهُ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ، الَّذِينَ لَا يَزَالُونَ يَبْذُلُونَ جُهُودَهُمْ فِي إِبْعَادِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ أَسْلَافِهِمُ الْمُتَقَدِّمِينَ فَطَالَمَا شَوَّهُوا سُمْعَةَ هٰؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ، لِيَحْتَقِرُوهُمْ وَيُبْغِضُوهُمْ، فَيَسْهُلَ إِخْرَاجُهُمْ مِنَ الدِّينِ وَالْعِيَاذُ بِاللهِ مِنْ هٰذَا الْبَلَاءِ الْمُبِينِ (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ).

(٥) وَيلزَمُكَ أيضًا : أَنْ تُحِبَّ جَمِيعَ إخوانِكَ المُسلِمِينَ . قَالَ اللهُ تعالى : (إنَّمَا المُؤْمِنُونَ إخْوَةٌ) وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ المُؤْمِنُ لِلمُؤْمِنِ كَالبُنيَانِ يَشُدُّ بَعضُهُ بَعضًا، وَقَالَ أيضًا: مَثَلُ المُؤمِنِينَ فِي تَوَادِّهِم وَتَرَاحُمِهِم وَتَعَاطُفِهِم مَثَلُ الجَسَدِ: إذَا اشتَكَى مِنهُ عُضوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى، المُسلِمُ أخُو المُسلِمِ: لَا يَخُونُهُ وَلَا يَكذِبُهُ وَلَا يَخذُلُهُ كُلُّ المُسلِمِ عَلَى المُسلِمِ حَرَامٌ عِرضُهُ وَمَالُهُ وَدَمُهُ، التَّقوَى هٰهُنَا، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحقِرَ أخَاهُ المُسلِمَ . لَا يُؤمِنُ أحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفسِهِ.

وَإِلَى هُنَا تَمَّ كِتَابُ الأخلَاقِ لِلبَنِينَ . فَعَلَيكَ بِمُطَالَعَتِهِ، وَتَفَهُّمِ مَا فِيهِ وَالعَمَلِ بِهِ، وَطَالِعْ بَعدَهُ الكُتُبَ الكَبِيرَةَ، مِثلَ النَّصَائِحِ الدِّينِيَّةِ، وَالدَّعوَةِ التَّامَّةِ لِلحَبِيبِ عَبدِ اللهِ الحَدَّادِ . وَأدَبِ الدُّنيَا وَالدِّينِ لِلإمَامِ المَاوَردِيِّ، وَإحيَاءِ عُلُومِ الدِّينِ لِلإمَامِ الغَزَالِيِّ، وَرِيَاضِ الصَّالِحِينَ لِلإمَامِ النَّوَوِيِّ، وَغَيرِ ذٰلِكَ مِنَ الكُتُبِ النَّافِعَةِ.

بَارَكَ اللهُ فِيكَ ، وَأَعَانَكَ عَلَى الدَّوَامِ ، وَجَعَلَكَ مِنْ جُنُودِ الإِسْلَامِ ، وَأَصْلَحَ لَكَ جَمِيعَ أُمُورِكَ وَالسَّلَامُ.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

تم الكتاب بحمد الله تعالى

فى ٣ ربيع الثانى سنة ١٣٧٨ هـ

بعض تقاريظ الكتاب

لما ظهر الكتاب بجزئيه الأول والثانى للبنين والبنات :
تفضل بعض أهل التربية والتعليم بتقريظه ؛ فلهم منى جزيل الشكر، راجيا من الله الجليل : ان يحقق أملهم، وأن يجعلنى واياهم من الداعين للفضيلة، القائمين بمحاربة الرذيلة، وأن يمدنا جميعا بالتوفيق وحسن الاعانة آمين . منها :

تقريظ الأستاذ القدير: الأخ محمد بسيونى عمران ؛ قال حفظه الله بعد الديباجة :

«انى لأشكر همتكم فى تأليف هذين الجزئين فى الأخلاق الإسلامية لطلاب المدارس بنين وبنات . وهما من أحسن الكتب موضوعا وترتيبا بعبارة سهلة ، فصيحة صحيحة، تسهل تناول ما فيهما على الطلاب : من درر الفوائد ، ومحاسن الأخلاق والآداب ، فجزى الله مؤلفهما الفاضل خير ما جزى به العاملين.

محمد بسيونى عمران

مهراج إمام سمبس

٢٤ فبراير سنة ١٩٥٥م

وتقريظ الشاعر الأديب السيد العلامة: محمد بن أحمد السقاف متع الله به:

بجهاد النفس استهان أناس ... ولهم بالتهذيب لان المراس
والتخلي لابد ثم التحلي ... فهما للتهذيب حقا أساس
إنما الخلق الكريم لديهم ... ما أتى وسطا هو المقياس
وكتاب (الأخلاق) أنعم بما فيـ ... ـه تلقاه بالقبول الناس
(بارجا عمر بن أحمد) قد جا ... ء بنور ضاءت به الأغلاس
قبس إهتدى له وفخار ... مثلما قد هدى له الأكياس
فأنار السبيل من بعد ما طا ... ل من الهجران عليه الياس
كاد من إعراض الزمان عن الأخـ ... ـلاق تطوى وجودها الأرماس
جاء نا (بالأخلاق) يالك تأليـ ... ـفا مسائله در ثمين وماس
خلق واحد أعز من الدنـ ... ـيا وما المال بالعزيز يقاس
شكر الله سعيه وأدام النـ ... ـفع للناس ما جرت أنفاس
نبأ الناس ما يضيع من الخلـ ... ـق وما قد اماته الأدناس
أهاب بهم لكى ينظروا النـ ... ـش ء حتى تجدد الأدراس
بارك الله فى اختيار كتاب ... كان للنشء حاجة ومساس
منة أهداها لهم خضعت للشكـ ... ـر أعناقهم لها والرأس
آنسوا منه كل خير ورشد ... وسرى فى المدارس الايناس

إنما النشء كالغراس فبالتث ... قيف صغيرا ينمو ويزكو الغراس
وأتى تاريخ التمام بشطر ... حققوا (الأخلاق) إنه النبراس
٣١٥ ٧٦٣ ٥٦ ٣٤٤

محمد بن أحمد السقاف

سرابايه ٢ ربيع الثانى عام ١٣٧٨ هـ.

⁂ ⁂ ⁂

وتقريظ العالم العامل الكياهى الفاضل الحاج : أحمد بن صديق حفظه الله آمين، المقيم بقليمور (باپواثى).

يا من يروم مكارم الأخلاق ... إن الرضا فيها من الخلاق
وكذا المحبة للمودة والرضا ... من كل إنسان مع الإشفاق
وكذا السعادة والكرامة والغنى ... والبسط فى الأحوال والأرزاق
وزيادة فى العمر مع بركاته ... إذ أنها للنفس كالترياق
وكذا العناية والكلاءة والهدى ... واللطف من رب كريم باقى
أكرم بها من غاية إن شئتها ... فادأب على قدم لذاك وساق
بمكارم الأخلاق كن متحليا ... تعلو بها شرفا على الأعناق
وحقائق الأخلاق بالأعمال لـ ... كن علمها فى الكتب والأوراق
فاعرف مسائلها من الكتب التى ... قد صنفت لا سيما (الأخلاق)

فهو الكتاب الجامع الموسوم بالـ ... اسم المطابق ما حوى بوفاق

ترتيبه تفصيله حسن حوى ... لمقاصد الأخلاق بالإطلاق

ولحسن ما فيه وموضوعاته ... لقى القبول وشاع فى الآفاق

أرجو من الآباء أن يعنوا به ... فثقافة الأبناء فى إملاق

نشء البلاد عليهم السعى لمعـ ... رفة الديانة فى وسيع نطاق

إن لم يكن للنشء اخلاق فإ ... نَّ مصيرهم للقهقرى ومحاق

فعليك صاح بما أتى (الأستاذ) فى ... تصنيفه من كلّ خلق راقى

نعم الفتى نعم الموفق للعلى ... (عمر بن أحمد) طيب الأعراق

فجزاه خيرا ربه عن أمة ... وأطل له عمرا وزد فى ألباقى

سد الفراغ وحاجة التعليم فى ... هذا الزمان الفاتن البراق

أكثر إلهى مثله واجعل له ... بالمصطفى من كلّ شر واقى

صلى عليه مسلما مولاه مع ... آل همو كالنجم فى الاشراق

والحمد لله المهيمن ما دعا ... بجل لصديق إلى أخلاق

كتبه الفقير: أحمد بن صديق

فى ١٥ ذى الحجة الحرام سنة ١٣٧٧ هـ.

بخط نور حافظ مالاغ